

محمود أحمد حماد

الحياة المثلى وكيف نحققها

".. منهج ذو أسس جديدة
جتمع أفضل ثم لعالم أفضل"



دار المعارف بمصر

الحياة المثلى وكيف نحققها

محمود أحمد حمّاد

الحياة المثلى وكيف نحققها

.. منهج ذو أسس جديدة
لمجتمع أفضل ثم لعالم أفضل

اقرأ ٢٢٢

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٢٢ — يونيه ١٩٦١

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — شارع كورنيش النيل — القاهرة ج.ع.م.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ليست هذه فكرة للتسلية، يقرؤها المرء ثم يلقى بها جانباً، وإنما هى موقف تجاه الحياة أو هى « فلسفة حياة » يأمل كاتبها أن تكون منهاجاً عاماً ومحوراً جديداً يلتف حوله.

ودعوة كهذه، لا يقف القارئ منها موقفاً سلبيًّا، وإنما عليه أن يقرأها قراءة نقدية فيدعها تنساب فى إدراكه ووجدانه بكل ما لها من طاقة ورغبة فى الخير ثم يكون رأيه تجاهها، أما أهل الفكر خاصة فعليهم واجب آخر فوق ذلك، وهو أن يترجموا عن رأيهم فى عمل نقدى. سواء بالموافقة التامة أو بالقبول مع تحفظ، أو بالرفض أو بتصحيح بعض أخطائها وسداد أوجه النقص فيها.

فإذا كان الرأى الغالب معها فعلى المؤمنين بها أن يتبنوها ويحولوها إلى سلوك وعمل، وإن كان الرأى الغالب إلى نقضها أو رفضها فليكن عمل هؤلاء الرافضين أيضاً إيجاد منهاج آخر خير منها، وإن كانت تحتاج إلى تصحيح بعض الأخطاء فليتعاون الجميع على هذا التصحيح لكى تكون نقطة انطلاق إلى حياة أكرم وأسعد.. هذا ما نأمله... ولا نظن أن

الغاشية التى تغشانا من الحيرة والشك فى مستقبل الإنسان تجعلنا نقف موقف المتردد إزاءها وإزاء الحياة بوجه عام .

إن الحياة تبعة ومسئولية — هكذا قدرت علينا — ولكنها تبعة تتفاوت خفة وثقلا بمقدار ما منحنا الله من الفهم والإدراك والشعور ، وإنه لتطربنى كلما ذكرت المسئولية الفادحة الملقاة على كاهل الموهوبين من البشر فى كل علم وفن تلك الآية الكريمة (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا فبئس ما يشترون) وليس الثمن القليل هنا إلا الإخلاد إلى الدعة والراحة والإشفاق من تحمل تبعات الرأى المستنير أمام الجموع المعارضة التى جانبها الصواب .

لقد غصت فى أعماق المجتمع بملاحظة دقيقة وعين مفتوحة ، فتعرفت عيوبه وتبينت مشكلاته فوصفت الحل الملائم للمشكل ، والعلاج الصالح للعيوب ، ووضعت الأساس لحياة جديدة فاضلة نمارس فيها ممارسة عملية ما تشوقنا إليه فى تاريخنا كله فلما أعيتنا الحيلة أطلقنا عليه كلمة « مثاليات » أو مبادئ خيالية هذه دعواى . كل ما على أن أكون قادراً على أن أقيم البينة عليها كإنسان يشارك إخوته فى الإنسانية آمالهم وآلامهم .

إن الإنسان لم يواجه محنة فى تاريخه أشد مما يواجهها اليوم ولا يظن البعض أننا نرمى إلى خطر القنبلة الذرية والهيدروجينية وملحقاتهما ، ولكننا نقصد ما هو أفدح من أسلحة الدمار

والفتك التى باتت تهدده ألا وهى محنة العقيدة ، محنة الروح من خطر الفلسفات المادية التى أصبحت تسود وتزحف وتحتل كل يوم موقعاً جديداً .

لقد تجاهلت الفلسفة المادية كل القوى المعنوية ، والقيم الإنسانية ، وحصرت المشكلة كلها فى لقمة العيش أو الجنس ، ونسيت أو تناست أن عمل المعدة وشهوة الجنس تتساوى فيه مع الحيوان تمام المساواة ، وأنهما بعض فروع المشكلة الكبرى كما أنهما ليسا أشد عراقة من المشكلات الإنسانية العليا ونفاذاً إلى الصميم .

ومما يضاعف خطرها أنها لا تقف وحدها فى الميدان ولكن تساندها قوتان لا نقلل من أهميتهما هما : (الإيمان المغرور بالعلم) و (الاستغلال بنوعيه : المادى والمعنوى) وخطتنا لمواجهة هذا التيار الجمعي الجارف شيء واحد هو : (المسئولية الفردية) ، هذه هى بداية الطريق فى معركتنا الإنسانية المقدسة . فليس الوعى الإنسانى فرض كفاية ، وإنما على كل فرد أن يحمل عبئه من الواجبات الإنسانية على قدر جهده .

وتحضرنى بهذه المناسبة قصة طريفة رواها الأستاذ مصطفى أمين من ذكرياته عن صدقى « باشا » السياسى . وهى : أنه ثار مع زملائه طلبة المدارس الثانوية لما ألغى صدقى دستور ١٩٢٣ فاستدعاه السياسى المحنك إلى مكتبه وسأله . هل قرأت دستور ١٩٢٣ و ١٩٣٠ ، وقارنت بينهما واعتقدت

أن الأول أصلح ؟ فأجابه لقد قرأه النحاس باشا زعيم الأمة وأبدى رأيه وهذا يكفى . فعقب السياسى العظيم قائلا : إذاً فاذهب منذ الآن إلى بيتك ولا تكمل تعليمك لأن النحاس باشا زعيم الأمة يحمل الليسانس وهذا يكفى .

لسنا ندرى على التحقيق الغاية التى قيلت من أجلها هذه العبارة ، ولكن الذى نؤكده أنها أصابت كبد الحقيقة فى رأينا وهى تعبر عن وجهة نظرنا تماماً فيما نحن بصدده .

فخطر الحضارة الآلية بعد ما يسرت للفرد أموره المادية ، وجعلته يحصل على حاجاته المعيشية من أسهل الطرق ، وشغلته بتنوع ميادينها حببت إليه الكسل فى كل شىء والسطحية حتى فيما يتعلق بواجباته الإنسانية العليا فى ميادين الروح والأخلاق والأفكار . فاضمحلت عنده قوة الإدراك السليم والنظرة المستقلة . وأصبح يردد كالببغاء كلمات ماركس وسارتر أو الغزالى وابن رشد وأضرابهم من المشاهير دون أن يكلف نفسه مشقة البحث الجدى فى المراجعة والمقارنة وأعمال الفكر فى اختيار الأفضل والأصلح . واستخلاص الآراء الخاصة بما يستنتجه من اطلاعاته بشعوره وإدراكه . ولذلك فنحن على قصد واع حينما خطونا الخطوة الأولى فى معركتنا دفاعاً عن الإنسان . أن أهبنا بقواه المعنوية أن تهب لتؤدى دورها المفروض فى هذا الصراع ، ونحن نقول معركة . لأننا نعلم أن استبداد الفكرة أشد صلابة فى الدفاع عن كيانه من استبداد الفرد أو المجتمع ، وبعضنا

اليوم هنا وفى العالم أجمع استبدت بهم بعض أفكار معينة، وخدرت أصحابها فاستناموا لها وسيطرت عليهم بحيث أصبح مجرد مناقشاتنا لها، وليس محاولة تفنيدها أو استبعادها، يحتاج إلى كل ما تتطلبه جهود المعارك من حول واستعداد .

وليس هذا مكان مناقشة هذه الأفكار أو الرد عليها، لأن هذه المبادئ التى دعمت بعشرات السنين من الزمن، ومئات المجلدات من الكتب لا يتسع لنا المجال لمناقشتها فى هذا الحيز المحدود .

وكل ما علينا الآن أن نعرض فكرتنا فى صورة سهلة ميسرة لتأخذ مكانها بجانب الأفكار الأخرى ثم نقف بجانبها للدفاع عنها حينما توجه لها سهام النقد ممن يحب أن يتصدى لها من المعارضين .

وكاتب هذه الرسالة لا يسعده حظه أن يجمع الكل على استحسانها أو تقديرها والثناء عليها ثم ينتهى الأمر عند هذا الحد .

وإنما قيمتها عنده بمقدار ما توجه من طاقة وما تدفع إلى عمل وما تحقق من نتائج إيجابية فى محيط الواقع الملموس .

(محمود حماد ــ سمالوط)

هل هناك حياة أفضل . . . ؟ ؟

منذ تفتح وعيي على هذه الحياة وأنا أشعر بعدم التجاوب بيني وبين المجتمع الذى أعيش فيه،ورغم التقدم الملموس فى جميع شئوننا المادية والعلمية والثقافية إلا أنني أحس أن هناك شيئاً ينقصنا . . .

وطالما أعملت فكرى فى البحث وراء هذا الشيء الناقص فاهتديت إلى أنه « فلسفة حياة»، أو مثل أعلى ينتظم نشاطنا وجهودنا فلا تتضارب ولا يناقض بعضها بعضاً .

لقد كنت منذ نشأتى أتساءل « ألا يمكن أن نقيم مجتمعاً على المحبة » ؟ كان هذا السؤال يبدوغريباً لنفسى شديد الغرابة وأنا أبصر المجتمع حولى يتنافس ويتطاحن فى حقد وضراوة بلا هدف ولا غاية . .

جيل حائر . . فقد المثل الأعلى والهدف الصالح والغذاء الروحى والقدوة الحسنة والفكرة السليمة التى يمكن أن يجتمع عندها الشمل وتأتلف الكلمة .

ولم أيأس . . وشجعنى على ذلك ما علمته من اطلاعاتى على تاريخ النهضات وتاريخ المصلحين وأن المصلح لا يظهر إلا كرد فعل للمجتمع المنحدر الذى يوجد فيه ولتصحيح الأوضاع المعكوسة وخلق القيم المعنوية الجديدة التى تصهر الروح

وتنير الضمير وتحلق بالنفس الإنسانية فوق أغراضها الوضيعة وغرائزها الدنيا، وأن يبث فى الأفئدة روح التطلع إلى أعلى فى كل مجال من مجالات الحياة .

وانزويت وحدى أدرس وأفكر وأتأمل وأرقب ما يحيط بى، وبين الحين والحين أراجع موقفى وأهم بالتراجع فأجد حافزاً خفياً يدفعنى أن أسير إلى نهاية الطريق . .

وبعد الهزات العنيفة من اليأس والأمل والمفارقات الطريفة من الإقدام والتردد والصراع الأليم بين الواقع المر والحلم الذى أعيش فيه تكشف لى الهدف الذى يمكن أن نلتف حوله وأقصر الطرق إلى بلوغه وحينما وجدت من نفسى العزم الصادق على أن أتصدى لهذا العبء الجايل كنت أقدر مدى الجهد الشاق والكد المضنى الذى سوف أتعرض له لأن الجهد يجب أن ينصب على هدفين رئيسيين .

أولا : تشخيص الداء .

ثانياً : العلاج الصحيح .

فالذى لاحظته أن كثيراً من المخلصين حينما يرون المجتمع الذى هم فيه ينحدر، ويحاولون إنقاذه يختلط عليهم الأمر فى فهم مشكلاته فهماً صحيحاً فيخطئون فى تشخيص الداء، ومن ثم يضعون حلولا غير عملية لمشكلات وهمية لم تقم على أسس من الدراسة الواعية والفحص الصادق العميق .

وتكون النتيجة أن تذهب جهودهم سدى ويستسلمون

لليأس بعد أن يبلوا البلاء الصادق فى كدهم وجهدهم، وينفقون الأعوام الطوال فى الجهاد والكفاح . . فيخيل إليهم أن صلاح الحال من المحال ويفلسفون الوقع الزرى الذى يعيشون فيه بأن الدنيا هكذا خلقت من قديم قائمة على المتناقضات وعلى الخير والشر، ولا جديد تحت الشمس، وأن التاريخ مملوء بالمصلحين والضحايا منذ الأزل فما انتفى الشر ولا صلح الحال .

أما أن الدنيا قائمة على المتناقضات وأن الشر عنصر أصيل فيها فهذا ما لا شك فيه . . ومما لاشك فيه أيضا أن البشرية قد قطعت أشواطاً عديدة فى مضمار الرقى والتقدم، وتكونت على مدى التاريخ مدنيات كانت كل واحدة أرفع من سابقتها وأوفى لعناصر الخير والسعادة للإنسان .

إن جهود المصلحين لم تذهب عبثاً . . وإنما أفاءت على الإنسان جسداً وفكراً وروحاً ما لا يحصى من الخيرات .

غاية الأمر أن الإنسان — وهذا من حسن حظه — طموح أبداً لا يكاد يعتلى درجة من درجات الرقى حتى يتطلع إلى أخرى، وتتلخص سعادته ورقيه فى هذا التطلع والعمل له، وما دام فى الإنسان نفس يتردد فان يهدأ له بال ولن يستقر على قرار ولن يكتفى بجهد السابقين فيما قدموه له، بل عليه أن يأخذ دوره مثلهم وأن يجعل حياته عامرة بالجهاد والنزوع .

هذا . . وكل مدنية جديدة — لأنها قامت على دعوة جديدة

ينادى بها الملهمون ويبشرون بها مستقبلا — يصيبون فى شيء ويخطئون الحساب فى شيء آخر، ولأنهم يسبقون زمانهم لا يستطيعون أن يحددوا المستقبل الاجتماعى بطريقة رياضية لا تحتمل الخطأ، وإنما يقدرون تقديراً فيخطئون فى بعض النتائج .

وتختلف طريقة التناول للفكرة الجديدة من فرد إلى فرد، ومن جماعة إلى أخرى، فيساء تأويل معظمها وقد تؤدى أيضاً إلى عكسها، وغالباً ما تتحول الدعوات الجديدة إلى نفس الأفكار السابقة وتتلون بها وتسرى كما هى فتكون كخمر قديمة فى زق جديد .

لهذه الأسباب كان على كل جيل أن يقوم بدوره فى تصحيح أخطاء مجتمعه، وفى السمو به مادة وروحاً إلى أعلى، ومفرق الطريق بين مصلح ومصلح لا فى مقدار الجهد ولا الحماسة للفكرة، وإنما فى تشخيص الداء، ووضع يده على المشكلات الحقيقية التى تعتاق طريق مجتمعه عن الرقى والنهوض .

إذن فالخطوة الأولى للمصلح الحق أن ينعم النظر ويطيل الروية فى فهم مشكلات مجتمعه، ويحددها تحديداً قاطعاً، ثم يكون من عمق البصيرة بحيث يرد المشكلات البارزة إلى عللها الخفية فلا يخطئ الربط بين الظاهر والباطن، وبين ما هو مخبوء وما هو ماثل للعيان .

هذه هى الخطوة الأولى .

وتبقى الخطوة الثانية، وهى أشد عسراً من الأولى : فقد

يتفق أكثر من واحد على تشخيص الداء ويختلفون فى تحديد العلاج .

والذى نلاحظه اليوم مع تعدد المذاهب المعاصرة أنها ترجع إلى مذهبين جامعين المذهب الجماعى والمذهب الفردى .

ونحن نرى أن من بين أتباع المدرستين من وفق توفيقاً لاشك فيه فى الكشف عن العلل الدفينة ، ولكننا لم نر بعد من وفق مثل هذا التوفيق فى العلاج الصحيح مع أن كليهما يشتعلان غيرة صادقة على خدمة الإنسان .

فالذين يبدأون الإصلاح من المجتمع يذهبون فى تطرفهم فى تقديس المجتمع والمساواة إلى حد فناء الفرد فى المجتمع بلا فهم . فيعودون بنا إلى مجتمع القبيلة فى أحط صورها . وهى نكسة نلمسها الآن فى كثير من البلدان والذين يبدأون الإصلاح من الفرد يذهبون فى تطرفهم فى تقديس الفرد والحرية إلى حد الفوضى والشطط بها على حساب المجموع .

وبين هذين الاتجاهين المتقابلين يقف الإنسان حائراً مبلبل الرأى والخاطر يتساءل أين الاتجاه الصحيح ؟

ونعود الآن إلى سؤالنا الأول . . (هل هناك حياة أفضل ؟)

وإذا لم تكن هناك حياة أفضل فهل حياتنا هذه جديرة بأن نحياها ؟ لقد قال الشاعر قديماً ولا يزال قوله صادقاً حتى الآن :

أين من لم يشك منا دهره ليت شعرى هذه الدنيا لمن ؟

نعم لمن هذه الدنيا إذا كان كلنا يشكو ؟ هل يدعى أحد أنه يعيش فى دنياه كما ينبغى ، وأن يحقق الوسائل التى تكفل له ذلك ؟ أم سيظل أبد الدهر عاجزاً عن تحقيق هذه الوسائل . . كل ما فى الحياة من متع ومسرات خداع وسراب .

الحق أننا غفلنا عن السعادة التى نتعشقها كما تدور فى خيالنا لأننا غفلنا عن الوسيلة الصحيحة . . إن بيننا وبين السعادة الممكنة حاجزاً شفافاً نراها منه ولا نتناولها . فهل نستطيع أن نصل إلى المفتاح السحرى لهذا الباب لنعب من هذه الحياة المترعة بالهناء على قدر ما نطيق فلم يمنحنا الله الحياة لنعطيها ظهرنا ونعيشها ، ونحن نتحسر فى ضيق الحرمان إن الله أوسع رحمة وأشمل عدلا من أن تكون هذه الحياة مجرد معاناة وحرمان .

وقبل أن نبدأ فى وضع الخطة وفى تعبيد الطريق الذى علينا أن نسلكه يحسن بنا أولا أن نلقى نظرة دراسة فاحصة على المعوقات التى وقفت فى طريقنا فانحرفنا عن الجادة ولعل أولى هذه الأسباب وأقواها . أننا لم نعد الآلة التى توصلنا إلى أهدافنا إعداداً صحيحاً وما هذه الآلة إلا نفوسنا . فلم ننح عنها أثقالها التى ناءت بها آلاف السنين من الحقد والكراهية والغيرة وظننا أنها تستطيع وعليها كل هذه الأوزار أن تخطو فى هذه الحياة الفسيحة التى يلزمنا لدخولها أن نكون خفافاً متعاونين .

ثانياً : كانت معظم النهضات السابقة رد فعل لمظالم واقعة وهذا طبيعى ، ولكنها لم تكد تقوم وفى نيتها دفع الظلم وحده

حتى تحل مكان القوة المنسحبة كقوة طاغية مستبدة؛ فتكون أشبه بعملية انتقام منها بثورة وإصلاح .

ثالثاً : كان بعض دعاة الأفكار السابقة خياليين حالمين ــ وهذا لازم أيضاً ــ ولكنهم لم يكونوا دارسين دراسة تامة واقع حياتهم المحيطة بهم وطريقة تناولهم لفكرتهم بالصورة التى يمكن أن تجد قبولا لدى مستمعيها ، وأن يتطوروا بها شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى النتيجة المرجوة .

رابعاً : كانت الدعوات السابقة انفرادية مفككة فلم تكن تجيد الربط بين القيم العليا وجمعها فى خيط واحد لتنتظم حياتنا من جميع نواحيها .

خامساً : يبدو أن البشرية على وجه الإجمال لم تكن مستعدة لقبول هذه الفكرة كما هى الآن . فقد أصبحت بعد التجارب المريرة التى خاضتها فى تاريخها الطويل ، وبعد الخطر الماثل أمامها فى كل لحظة . . . أصبحت مهيأة لحمل هذه الرسالة الحقيقية لتقوم بشعائرها عن ولاء وإخلاص .

هذه هى المعوقات الكبرى التى اعترضت طريق الإنسان ووقفت حائلا بينه وبين حياته . . . والحق أنى لأعجب الآن بعد وصولى إلى هذا المستوى من الفهم للحياة كيف ارتضى الإنسان حياته السابقة ، وكيف صبر عليها ولم لم يهزأ بها ويطوحها بين قدميه ؟

أهو يستحق الإعجاب على احتماله كل هذا العمر

الطويل أم نعتبرها بلادة حس وجمود إدراك ؟

إن على مدى التاريخ كثيراً من الذين أوتوا الإدراك السليم والإحساس المرهف عجزوا عن تكييف أنفسهم ، وفق الحياة التافهة الحقيرة التى عاشوها فغادروها غير آسفين ، وإنى لأذكر والحسرة تملأ نفسى – آخر الضحايا هنا فى القاهرة منذ أكثر من عشر سنوات تقريباً . . . طالب جامعى أرسل خطاباً إلى صديقه يخبره بهذا المضمون قبل أن ينتحر وكان آخر كلماته . تلك العبارة الخالدة التى هزتنى هزاً عنيفاً ومست قلبى بعمق لم يسبق له مثيل (أريد قيماً إنسانية) صرخ هذه الصرخة وبعدها ودع الحياة .

ولقد راودتنى هذه الفكرة مرات ومرات ، وظلت تلح على طول عمرى أن أقتدى بهذا الزميل الشهيد أن أصرخ هذه الصرخة وأودع هذه الكأس المريرة التى لم نجن منها إلا الصاب والحنظل إلا أن شيئاً غامضاً فى نفسى كان يهتف بى .. إن الفجر على الأبواب .

وكم بيننا اليوم من شهداء أحياء كل يوم وكل ساعة تمر من حياتهم تعتبر استشهاداً أو انتحاراً . . . كم بيننا الآن من هؤلاء الظامئين الحيارى الذين يحسون الحياة المترعة من حولهم ولا يدركون منها منالا .

فلهؤلاء الحيارى . . والبشرية الجديدة الصاعدة والمقبلة على التوالى إلى هذا الرحاب الفسيح الذى جعلناه بجهلنا وعجزنا أضيق من سم الخياط أقدم هذه الدراسة الجادة وأسأل الله التوفيق .

المنهج العملى

المبدأ الأول :

الجزاء الذاتى

هل تذكر مرة وأنت تسير فى الطريق العام فى ساعة متأخرة من الليل أن وجدت وسط الطريق حجراً ملقى، أو وقع نظرك على قشرة موز مثلا فانحنيت عليها وألقيت بها بعيداً عن أقدام السابلة . . ؟

هل تذكر حادثاً كهذا أو شيئاً مماثلا له ؟ ثم هل شعرت بعد ذلك بكثير من الراحة النفسية والمتعة أنك نحيت الأذى عن طريق مجهول لا تعرفه كلما دار فى خيالك أن هذا القادم المجهول سيصاب برضة من أثر اصطدامه بالحجر، أو بكسر فى أحد أضلاع جسمه إذا انزلق قدمه على قشرة الموز فسقط على الأرض؟

فى هذه اللحظة لم ترغمك قوة قانونية على هذا العمل . . . ولم يصفق لك جمع من المشاهدين . . . ولم يتقدم إليك بالشكر أحد على صنيعك . لأنه مجهول منك وأنت مجهول منه . . ولم يكن هذا المجهول أحد أصدقائك أو ذوى قرباك . . وهذه هى الدوافع كلها التى تجعل الفرد يقوم بعمل طيب . . وإنما فعلت ما فعلت بدافع نفسى داخلى محض . كان أقوى عندك من التكليف والأمر . وأحلى لديك من كل جزاء وشكر .

بماذا نسمى هذا الدافع النبيل المطلق من أى إلزام أو جزاء؟ نستطيع أن نطلق عليه من الأسماء ما نشاء ولكنا نريد هنا أن نتفق على اسمه الحقيقى وعلى مدلوله الأوحد الذى ينطبق عليه تمام الانطباق وهو « الجزاء الذاتى » .

الجزاء الذاتى إذن : هو أن نفعل ما نعتقد أنه الخير بدافع داخلى محض أشبه بالاستجابة الطبيعية التلقائية منه بالعمل المحدد المرسوم،أن تفعل الخير بجهد ما تستطيع لأنه خير — لا لأنك تثاب عليه أو لأنك ستتلقى الشكر من أحد . أو أن ما تعمله له أحد أقربائك أو أصدقائك أو أى شخص معروف لديك يمكن أن يرد الجميل بالجميل .

إننا نود أن نرتفع بمثل هذا المثل البسيط العادى المكرر إلى أسمى من ذلك وأكثر تعقيداً ، حتى نجعله ينتظم كل معاملاتنا وعلاقاتنا وأعمالنا . . . بل كل حياتنا من جميع نواحيها .

فلنتدبر جيداً . . . ولنفتح عيوننا وبصائرنا عن آخرها لنعلم أن كل ما نعانيه من خلط واضطراب وتخبط فى أمورنا وفى معاناتنا للحياة الكريهة التى نعيشها إنما هو لسبب واحد : هو أننا غفلنا فى تاريخنا كله عن هذا القانون العظيم الذى يتلخص فى كلمتين اثنتين : « الجزاء الذاتى » .

ونرجو ألا يدور بخيال أحد أننا حينما نصور كل ما نحن فيه من فوضى وتخبط ، أننا نقصد المبالغة أو عدم الدقة التامة فى التعبير ، وإنما نراعى الأمانة التامة فى وضع الألفاظ فى مواضعها الطبيعية ومطابقة لمدلولها الصحيح .

وندلل على هذا بمثل شائع مكرر يحدث بيننا كل يوم، ويلقى الضوء الكاشف على حقيقة وعينا لهذا الموضوع من جميع نواحيه ويغنى عن أكثر من مثال :

زيد وخالد قريبان أو صديقان حميان ، اقترض أولهما من الثانى مبلغ مائة جنيه ، ونظراً لصلة الصداقة بينهما أو القرابة رفض خالد أن يأخذ من زيد إيصالا بالمبلغ أو أى إشهاد يثبت عليه الاقتراض ، وتمر الأيام . . . ويطلب خالد من صديقه زيد أن يرد مبلغه فيماطل . ثم يراوغ . ثم يثور آخر الأمر قاذفاً فى وجهه بهذه الكلمة الشهيرة التى كثيراً ما تقال فى مثل هذه المواقف « إن كان عندك ورقة روح اشتكينى » ويصاب خالد بصدمة وخيبة أمل فى الصداقة والأخوة والحياة . . . فيلجأ إلى القانون الذى وضع لينصف الناس من الناس، ويقتص للمظلوم من الظالم . ويطلب القاضى من المدعى أن يبرز ما عنده من البينات . فيثور الرجل مزمجراً شارحاً للقاضى ظروف الاقتراض ، وأن ما منعه من طلب إيصال كتابى إنما كان بسبب الصداقة القائمة أو القرابة الوطيدة... ويقتنع القاضى بصحة دعواه وحرارة صدقه . . . وبين يديه القانون الذى وضع لينصف الناس من الناس ويقتص للمظلوم من الظالم . ولكنه — وفى يده كل هذه السلطة وفى يقينه كل هذا الاقتناع — يجد نفسه عاجزاً أمام هذا الفرد الأعزل أن يرد الحق إلى نصابه .

ذلك لأننا غفلنا عن القانون الطبيعي النابع من الضمير وأقمنا الميزان لقانون مصنوع علقنا عليه كل آمالنا في إقرار الحق والإنصاف والجزاء . . . واستعضنا به عن القانون الأصيل .

إذن فالقانون الموضوع لم ينصفنا فى حالتنا هذه ، أو بالأحرى عجز عن إنصافنا وفى حوزته كل ما كتب الشراح وجهابذة الفقة على مر العصور ، وكل ما تملك الدولة من أدوات التنفيذ والإرغام . .

عندئذ يخطو صاحب الحق خطوته الثانية فيلجأ إلى الرأى العام ممثلا فى معارفه وجيرانه ويعرض شكواه منددا بهذا الآخر الذى خان ثقته وضيع ما بينهما من أواصر الصداقة أو القرابة فى سبيل المال منتظراً أن يجد منهم من يسانده وينعى معه الخلق الفاضل ولكنه سيجد عكس ما كان يتوقع ، سيجد من يسخر منه ومن يهزأ به وبغفلته البالغة ، وعدم فهمه لواقع مجتمعه وكيف أنه لم يدرك الأمور على حقيقتها كما يجب أن تدرك ، فلا يثق بصديق أو قريب ، ولا ينخدع بالألفاظ المعسولة التى يطلقها هذا الشخص أو ذاك تحت اسم الصداقة أو الأخوة أو الخلق أو الرجولة وما إليها ، وأنه يعيش فى الأحلام التى لا يمكن أن تتحقق ، والتى فات أوانها من زمن بعيد .

ثم يذهبون إلى الآخر الذى انحط بشرفه إلى هذا المستوى الدنىء من أجل المال . فلا يلومونه على فعلته ولا ينكرون عليه ذلك المسلك الوضيع وإنما سيجد التشجيع والاستحسان

والثناء على شطارته وبراعته فى اقتناص المبلغ ويتبادلون الضحكات العالية على هذا التوفيق .

ونعود الآن إلى خالد . . . إلى الرجل الشهم النبيل الذى أنقذ زيداً من ورطته أو خيل إليه أنه كذلك، سنجده يكف يد المعونه والنجدة عن أى إنسان آخر مهما تأكد من صدق وعده، وشدة حاجته حتى لو كتب له ألف ورقة بمبلغه لأن المسألة فى حسابه ليست مسألة ورقة تضمن له حقه وإنما مسألة شعور بالتعاون والترابط بينه وبين الآخرين .

وبذلك تنبت ما بين الناس من صلات، وتنقطع ما بينهم من أواصر، ويعيش الكل منطوياً على نفسه منعزلا عن الجماعة لا يشارك أحد أحداً فى وجدان أو شعور كما هو واقع بيننا اليوم .. وبهذا تفقد الجماعة روح كيانها ومقومات وجودها، ويتجلى هذا عندما ينشد محتاج صادق الحاجة العون فلا يجده فى وقته . . فلا يكون أمامه إلا أحد أمرين . إما أن يهلك أو يسلب ما ليس له عنوة واغتصاباً . . فتكون الجريمة ويكون الصدام والتخبط الأعمى الذى ليس له مدى ولا نهاية . فتتقوض أركان المجتمع ويميل بنيانه ويترتب على هذا الشىء البسيط الصغير أو الذى نظنه بسيطاً صغيراً من الشرور والآلام ما لا يدركه الخيال أو يدور فى الحسبان .

ونعود إلى قصتنا مرة أخرى لنتصل بها إلى النهاية ، فنجد أن خالداً عاد ثانية إلى صديقه السابق وقد عز عليه أن يخسر

الصديق والمال معاً . وليستنقد منه بعض ما أخذه ، ولم يستطع أن يرده القانون أو القيم الاجتماعية السائدة . . يلجأ أخيراً إلى ضميره ليرد له ما يشاء من حقه ، وما يخرج من ذمته ، وقد يتفضل عليه زيد بما يشاء فيعطيه ربع المبلغ أو خمسه أو يرفض أن يعطيه شيئاً . . هذا إن لم يرده رداً غير كريم .

. . . هذا هو الوضع المعكوس .

ولذلك فنحن نؤمن أننا حينما ندعو إلى مبدأ الجزاء الذاتى لا نطلب مستحيلا ، ولا ننشد خيالا ولا نتعلق بحبال الأمل الواهى ، وإنما نريد أن نصحح الوضع ونعيد الأمور إلى حالتها الطبيعية الحقيقية كما ينبغى أن تكون .

إن خطيئتنا الكبرى على مدى التاريخ أننا ألقينا بالجزاء من الداخل إلى الخارج . فتعلق الإنسان به سواء أكان جزاء دنيوياً أم أخروياً .. غافلين عن الجزاء الحقيقى الأسمى الذى ينبع من النفس ذاتها ، والذى يعلو على كل جزاء . . إننا فى حاجة أن نوليه الجزء الأكبر من عنايتنا والنصيب الأوفر فى ثقافتنا وتربيتنا حتى ينال منا ما هو جدير به من الاهتمام الكامل ، والتقدير الصحيح وبعدها سوف نفخر أننا نعيش فى مجتمع بشرى متحضر لا كهذه الذرات المتناثرة التى تتخبط فى عماء . .

* * *

ونحن لا نستطيع أن ندلل على صدق ما نقول عن الوضع الطبيعى بأكثر من القصة ذاتها لنرى لو قلبنا الوضع كما ينبغى أن يكون كيف يكون الحال ؟

والوضع الصحيح الذى نتخيله أو نأمله هو أن نبدأ حيث انتهت القصة على الوضع السابق ، فنرى المجتمع وقد سرت فيه كلمة — الجزاء الذاتى — أو على قطاع كبير منه وأصبح لها مدلولها الصحيح ، ووجدت الوعى النامى الذى يهضمها ويتمثلها ستكون النتيجة حينئذ أنه عندما يقرض خالد زيداً مبلغ المائة جنيه لا يتجه إلى القانون أولا ثم إلى قيم المجتمع المنحلة ثانياً ثم إلى ضمير الفرد المشلول ثالثاً ، وإنما سيتجه أولا وقبل كل شىء إلى الفرد ذاته وإلى شعوره بأن رد هذا المبلغ هو عمل طيب فى ذاته ، إنه وفاء بالوعد وامتنان للصديق وبر بالصداقة وصيانة للكلمة الملفوظة والتى هى أعمق أثراً من كل إيصال مكتوب . . ومن يشعر بمتعة الجزاء الذاتى سيجد فى القيام بهذه الالتزامات وحدها أصدق الجزاء وأغلى من كل ما على الأرض من كنوز .

فإن وجد بعد ذلك الشخص المختل الطبيعة الضيق النفس المظلم الإحساس ، العاجز عن أن يسمو إلى هذا المستوى العادى فسيجد خالد الإنصاف من المجتمع الناضج المتحضر الذى يعرف قيمة الكلمة ويقدس الشرف ويعتز بالرجولة ويتشرف إلى كل خلق كريم فلا يسمح لفرد من أفراده أن يعبث بكل هذه القيم التى يحرص عليها المجتمع أعظم الحرص ويعتبرها

ثروته الحقيقية . . . لا يسمح مجتمع هذا حاله لفرد طائش أن يدمر كل هذه القيم فى سبيل نزوة فردية أو رغبة دنيئة فلا يجد أمام إصرار الجماعة على مثلها . . بل على حياتها إلا أن يسلم بحق صاحبه راضياً أو كارها . . فإن وجد بعد ذلك الشخص الشاذ غير الطبيعى الذى لا يجد متعة فى الجزاء الذاتى وفى الوفاء بالتزاماته لمجرد الوفاء ، ولا يحترم ما تواضع المجتمع الفاضل عليه من قيم ، فهناك أخيراً يجب تقديمه إلى القانون لينتصف منه لا على أنه مجرم بل لأنه جاهل أو عاجز أو مريض فيعمل بوسائل علمية على تقويمه وإرجاع نفسه الشاردة إلى حظيرة المجتمع الحر الكريم .

إننا لا نريد أن نسرف فى ضرب الأمثال ، وفى إقامة الشواهد ، وإنما همنا كله الآن أن نضع القاعدة وأن نطبق عليها مثالا واحداً يشهد بصحتها وصدقها ، تاركين المجال بعد ذلك لمن يشاء من القياس والاستطراد .

وحينما نقول إن هذه الجملة الصغيرة المؤلفة من كلمتين اثنتين ستحدث من الأثر ما لم تحدثه أى ثورة سابقة لا نكون مغالين أو حالمين .

فقد تبلورت الثورة الفرنسية بكل جلالها وضخامتها فى كلمتين : حرية . ومساواة . . والإسلام وقد أسدى للبشرية ما أسدى لخص دعوته فى جملة واحدة « لا إله إلا الله » ومن قبله المسيحية جعلت شعارها « الله محبة » .

ولا يظن أحد أن المناداة بتطبيق هذا المبدأ جاء قبل أوانه، وقبل الاستعداد التام له . فنحن نعتقد أنها جاءت فى أوانها إن لم تكن بعد أوانها .

فهذا التخبط فى كل شأن من شئوننا، وهذه الفوضى الضاربة أطنابها فى كل ناحية، والانحلال الذريع فى كل مكان . . . هذا كله لا علاج له إلا شىء واحد هو الإسراع فى تطبيق هذا المبدأ الجليل .

ولا يفهم من هذا أن هذا المبدأ غير معمول به حتى الآن، فما أعمال الأنبياء والمصلحين والمخلصين من أبناء البشر منذ فجر التاريخ حتى اليوم إلا ترجمة دقيقة له . حتى إنه روى عن خالد ابن الوليد أنه قال « لو لم أؤجر على ترك الكذب لتركته أنفة » .

كما أن عمل الغرائز والعواطف والصراع والكبت والعقد لم يكن موجوداً قبل فرويد ؟ وإنما كل عبقريته تتلخص فى أنه اقتنص المعنى الخفى المبهم الذى نحسه ولا نلمسه ووضع له الصورة اللفظية التى تحدد أبعاده وتجسده . ليصير معرفة عامة من بعده ويضاف إلى كشوف الإنسان فى مصطلحات العلوم .

ونحب أن نشير إلى الفروق الدقيقة التى تميز الجزاء الذاتى من الجزاء الدينى كما هو محدود فى الأذهان، فقد يقول قائل: إن الجزاء الذاتى ما هو إلا الجزاء الدينى المرتكز على الضمير، وحتى يتضح الفرق الدقيق نجيب : إننا نعتبر الجزاء الدينى

جزاء خارجيًّا كالجزاء القانونى سواء بسواء بمعنى أن الفرد الذى يؤمن بالله وبالجنة والنار ويفعل الخير نتيجة هذا الإيمان، لا يستشعر متعة الجزاء الذاتى فلو ضعف هذا الإيمان أو انتفى لأى سبب من الأسباب فلن يعمل الخير الواجب الذى كان يصنعه من قبل كالرجل الذى لا يخشى إلا القانون لو أمن بطشه لصنع ما تمليه عليه أهواؤه الضالة . . . وغاية الدين من أوامره ونواهيه ليس الحجر أو الوصاية، وإنما تهذيب النفس وتقريب الإنسان من فطرته التى فطره الله عليها، أى إلى مستوى الجزاء الذاتى .

أما فكرة الجزاء الذاتى فهى مبرأة من الرقابة القانونية والرقابة الدينية غايتها تحرير الضمير البشرى من كل قيد وأن يحمل تبعة عمله، وأن الجزاء فى نفس العمل إن خيراً فخيراً وإن شراً فشر .

هو الفرق بين نظرتين . نظرة تلزم الفرد بعمل الواجب لتغريه بالجزاء ونظرة تلزمه بعمل الواجب لأنه مسئول . . . وهو مسئول لأنه جدير بشرف المسئولية . إذ المسئولية لا تسقط إلا عن قاصر أو سفيه أو مجنون . . . .

* * *

وبعد أن توصلت إلى هذا القانون واطمأنت نفسى إليه ناقشت فيه كثيراً من أصدقائى أبدى بعضهم اعتراضات قد تجول فى أذهان كثيرين ويحسن أن نرد على بعضها هنا .

فقد اعترض البعض أن هذه الفكرة مثالية أكثر مما يجب ، وأنها تناقض الواقع الأنانى وما جبل عليه الناس من الأثرة وحب النفس . . وهذا الاعتراض أولى أن يكون تأييداً، لأنه إذا كان المجتمع على الصورة التى يذكرها فهذه الدعوة لازمة لإقامة التوازن فضلا عن أنها لو عمت وسادت لأصبح المجتمع على الصورة التى نأملها .

على أن أعجب ما وجه إليها من اعتراض هو : (أن ما نجده اليوم من اضطراب الحال وإشاعة القلق وزلزلة أركان الأخلاق إنما هو الضريبة المفروضة للمدنية الآلية الجديدة . التى يجب أن ندفعها عن طيب خاطر) . ومع ما فى هذا القول من بطلان واضح إلا أنه من الانتشار بحيث يجعلنا نقف عنده لنفنده .

ونبادر فنقول : إننا يجب أن نفهم أن الاهتمام الأول لكل مدنية أو تقدم إنما هو بمقدار ما تضفيه من السعادة على روح الإنسان نفسه بصرف النظر عن المظهر الخادع ولا قيمة للمظهر إذا كان ذلك على حساب الإنسان نفسه .

ومن العجز المخزى أن نرى كل هذه الرزايا الكبار التى تغشانا ظلالها بل ظلماتها ضربة لازب وقدراً مسيطراً لا مفر لنا منه ولا مخلص من أشراكه .

فالإنسان الذى حطم الذرة واخترق أجواز الفضاء العليا وغاص فى أعماق المحيطات لا يسعده ذلك إذا لم يبدع النظام اللائق به فى كل طور من أطوار حياته وأن يوجد القيم العليا

التى يترسم خطاها فى سيره فلا تضله ولا تشقيه .

إن الرضا بالواقع شيء . ومحاولة تحسينه والتطور به إلى أعلى شيء آخر . وما يظنه البعض من أن الحالة الأخلاقية التى نعيش عليها إنما هى الواقع الأمثل وهو أقصى جهد المدنية الحاضرة . إنما يغفل عن قانون التطور والمحاولة الإنسانية الدائمة نحو الأكمل والأمثل ، والنزوع إلى المستوى اللائق على قدر الإمكان .

فلنيمم وجوهنا منذ الآن شطر هذا المبدأ السامى ولنفتح له قلوبنا طواعية واختياراً ، ولنعلم أن كل دقيقة تمر بنا بعد الآن ونحن بعيدون عن تطبيقه إنما هى ضياع أكيد من وجودنا وحياتنا هذا الوجود الزائف الذى نعيش فى نطاقه .

(الجزاء الذاتى) ما أجمل هذه العبارة وما أرقها وأسماها خاصة حينما تسود بيننا قيمة عليا وحينما يحاول كل فرد أن يطبقها فى حياته جهد ما يستطيع .

إنه الأساس الوحيد المتين لكل ما ينبنى عليه من القيم العليا فى مجتمعنا المقبل السعيد بإذن الله ..

بقيت كلمة أخيرة فى مجال الاعتراض المقبول وهى :

هب أننا آمنا بالجزاء الذاتى كقيمة عليا وعملنا على تحقيقها فما هى المفاهيم الصادقة للفضيلة والرذيلة ، وما هى المعانى المحددة للخير والشر حتى نحس بمتعة الجزاء الذاتى حينما نفعل الخير ونبتعد عن الشر : إن الفضائل يختلف مفهومها من مكان إلى

مكان ومن طبقة إلى أخرى حتى فى الزمن الواحد فإلى أن يتحدد مفهوم القيم على معنى واحد لا سبيل إلى الشك فيه لا نستطيع أن نطبق هذا المبدأ السامى الجليل .

وأجيب : أولا : إننا نريد أن نقر المبدأ فى ذاته من حيث هو مبدأ .

ثانياً : أن نبدأ بتطبيقه حيث القيم المفهومه الواضحة التى نتفق عليها الآ ن .

ثالثاً – إن الأصول الأخلاقية الكبرى متفق عليها غالباً . ولا خلاف إلا على التفاصيل والفروع وهذه سيتكفل بها المبدأ الثانى من هذا البناء .

المبدأ الثانى :

الحق من طريق الإقناع

نشأة الحق :

نستطيع أن نتصور أن الحق نشأ فى المجتمع الأول بسيطاً واضحاً كان كل هدفه الإخبار بالواقع . وبعد مرحلة تقدم أصبح مضمونه الاستفادة الواعية من التجارب الماضية والقياس عليها لأمور المستقبل من ثقافة وممارسة وغير ذلك . وانفرد به أناس ذوو ألمعية خاصة كل فى ميدانه يتوفر عليه بجهده ، ودراسته حتى يصل إلى الحل الصحيح أو ما يعتقده صادقاً أنه الحل الصحيح ، ثم يبدأ يبشر بنظريته الجديدة داعياً لها جهد ما يستطيع وتقوم الآراء الأخرى من جانب أناس آخرين مفندة أو ناقدة أو مستحسنة أو هادمة للفكرة الجديدة ، ولا يزال الأخذ والرد حتى يستقر الأمر على إثباتها أو نقضها أو تكملة أوجه النقص فيها إن كان ثمة حاجة إلى تكملة .

ثم تطورت نظم الاجتماع وتعقدت أساليب السياسة والحكم ، واستغل ذوو الأغراض الملتوية هذا التعقيد فزيفوا فكرة الحق من أساسها وأعملوا جهدهم فى تزييفها لمنفعة شخصية بحتة . للخداع والتمويه . أو بالقسر والإرغام إن كان فى يدهم صوبجان الحكم وأدوات التنفيذ .

فانطمست معالم الحقيقة وضل الناس السبيل إليها . وأصبحت كلمة شائهة مبهمة . لا مفهوم لها ولا مضمون . لأنها قامت على غير الأساس الوحيد الذى كان يجب أن تقوم عليه وهو « الجزاء الذاتى » عندئذ ساء ظن القارئ بالكاتب مهما يكن جاداً أو صادقاً ، ومهما يبدو عليه من الإخلاص والجهد فى سبيل فكرته وساء ظن المحكوم بالحاكم وإن بذل أقصى ما فى طوقه لمصلحته .

ولا أدل على ذلك من أن أسرد هذه القصة كما حدثت بينى وبين صديق لى عمدة لإحدى القرى المجاورة : جاءنى ذات يوم فرحاً ليروى لى حدثاً خطيراً وهو معتقد أنه أدى واجبه وأبرأ ذمته حين قام به .

قال : أنت تعرف الضريح المقام ببلدتنا للشيخ فلان . قلت له نعم . قال : لقد هدمت هذا الضريح فى الأسبوع الماضى بعد أن ضقت بزيارات الناس له وتمسحهم به . وتقديم القرابين باسمه مع شدة حاجتهم إليها . وكان يؤلمنى ما أراه هناك من تضرع وخشوع يجب ألا يكون إلا لله وحده جل وعلا ، فأقدمت على هذا العمل رغم استنكارهم له . وإيمانهم أننى بهذا أعرض نفسى لبطش الشيخ وانتقامه وها قد مضت هذه المدة ولم يحدث لى شىء والحمد لله .

قلت : وهل امتنع الناس بعد ذلك عن الذهاب إلى هناك وتقديم القرابين ؟ أجاب وفى صوته رنة أسى واضحة . أبداً .

إنهم يذهبون إلى المكان المسوى بالتراب ويفعلون ما كانوا يفعلونه فى الماضى ثم سكت ناظراً إلى ينتظر منى الجواب . وكان يعتقد أننى سأهنئه على خطوته الفذة الجريئة، وأشاركه الاستياء من تصرف أهل بلدته . ولكنى أجبته بالحقيقة التى صدمته وكانت غائبة عنه حتى ذلك الحين . قلت له : أولا : إن ما قمت به من هدم الضريح وتسويته بالأرض — وإن كان حقًّا فى ذاته — إلا أنه جهد ضائع لا قيـــمة له لأنه قائم على اقتناع فردى محض وإن تصرف أهل القرية بزيارتهم للمكان وتقديمهم القرابين إنما هو تصرف طبيعى لا ينتظر أن يحدث غيره . . . فالناس يستجيبون لك بنسب متفاوتة إذا صادمت عقائدهم الموروثة بالمنطق والإقناع وقد لا يستجيبون . ولكنك حينما تصدم عقائدهم وفى يدك القوة لا المنطق فإنك من حيث لا تشعر تزيد من تمسكهم، وتولد فى نفوسهم الإصرار على ما يعتقدون .

ثانياً : سبق لك أن مررت على هذا الضريح مرات ومرت فهل شعرت يوماً أنك تستجيب لما يستجيبون من تضرع وخشوع أو تقديم للقرابين . والجواب . لا . لأن ما وصلت إليه بفهمك وثقافتك ورقى فكرك جعلك تعتقد عكس ما يعتقدون . . . إذن فالبناء مهدوم فى نفسك وإن كان قائماً أمام ناظريك أما هؤلاء — ولهم العذر — فالبناء قائم فى نفوسهم تحت تأثير العقيدة التى أملاها الجهل وإن كان مهدوماً فى الواقع ؛ فالحل

الطبيعى أن تحاول نقل إقناعك من نفسك إلى نفوسهم عن طريق المنطق والتدبر والفهم السليم .

قال : أوه . . . كم يلزمنا من الزمن لنصل إلى ما تريد عن طريق الإقناع . إن هذا يحتاج إلى سنوات بل أجيال .

قلت : إننا نريد أولا : أن نتفق على الحل السليم المجدى وبعد ذلك لا يهمنا الزمن ولا طول المسافة . . . أما اختصار الإجراءات إلى هذا الحد والوصول إلى الهدف من غير طريقه الطبيعي فسيقودنا إلى التخبط واحتمال النكسة أكثر مما يقودنا إلى الأمام .

لنفرض أنك اعتزلت هذا المنصب لسبب من الأسباب وتولاه أحد أقربائك أو منافسيك ولم يكن على الثقافة والإقناع الذى أنت عليه فماذا تكون النتيجة. سيعيد هذا الضريح كعهده الأول وسيكون الناس أكثر استجابة له . ولكننا لو تصورنا الوضع الآخر وهو أنك قمت بهدمه بعد إقناع فلن يعود هذا البناء أبداً مهما يتوالى على منصبك من أشخاص غارقين فى الجهل والرجعية وحتى لو أعادوه فلن يجدوا استجابة له من الجمهور الواعى المقتنع بفساد الإجراء .

يا صديقى : إن العمل الواحد قد يكون فضيلة ورذيلة معاً إن كان الدافع إليه الرغبة فهو فضيلة وإن كان الدافع إليه القهر فهو رذيلة مهما تكن نسبته إلى الفضيلة فى قاموس الأخلاق . . .

* * *

هذا من ناحية الأمر الملزم عن طريق سلطة الحاكم مع افتراض أن هذا الحاكم صالح مخلص مبرأ من العيب ومن الغرض . أما إذا كان سيء الضمير وملتوى الغرض فإنه سيكون بمثابة الكارثة ولن تقف في طريقه قوة إلا أن يتجمع سخط النفوس فى ثورة عارمة تزلزل قواعد حكمه .

أما من ناحية الآداب والفنون التى تحاول الاتجاه بأساليبها إلى هدف معين ، والقدرة على الدعوة له بفنون الخداع والتأثير التى تجيده .

فيقول قائل عن رجال الآداب والفنون .

إنهم يستطيعون بما أوتو من براعة التعبير وأساليب البيان ، وما اكتسبوه من قدرة على صياغة الحجج أن يحسنوا القبيح ويقبحوا الحسن ، وعلى قلب الأوضاع وإشاعة الفوضى وإفساد الأخلاق والدعوة إلى الهدم والتخريب ، وسيكون تأثيرهم هنا أشد خطراً لأنه تأثير الإقتناع الذى تنادى به وتدعو إليه ، أليس من حق الحاكم أن يقف فى طريقهم وأن يصدهم عن غايتهم وأن يحطم وسائلهم الملتوية بقوة القانون وما يملك من أدوات التنفيذ أم يقف هنا موقف العاجز المتردد ويترك الأمور فى جرية حتى تصل إلى الفوضى والخراب ؟

وأجيب أولا : إننا حينما ندعو أن يكون الحق من طريق الإقناع إنما نقيده بما ندعو إليه على الأساس السابق وهو

الجزاء الذاتى لأن هذا المبدأ هو الأساس الوحيد لما يقام عليه بعد ذلك من القيم والأديب الذى يستشعر الجزاء الذاتى لا يستغل فنه . فى سبيل نزوة فردية أو مصلحة شخصية أو طائفية، بل سيكون كل همه أن يبرز ما فى طوقه من فكر وشعور فى سبيل ما يعتقد أنه الخير للجميع .

ثانياً : نحن نؤمن أن الحق المطلق لا وجود له ولكنه نسبي ككل شىء فى حياتنا وعقائدنا ولا يتجلى الحق كأوضح ما يكون إلا من خلال اصطراع الآراء وتضارب الحجج وتعدد وجهات النظر فلا يجوز لأى قوة أن تقف فى طريق الرأى الحر ليأخذ حقه فى الظهور والانتشار المقدر له تحت أى حجة وباسم أى دليل . . . فالوضع الذى نأمل أن يكون هو أن يؤدى صاحب الرأى رأيه كأى عمل طيب يود أن يسديه لمجتمعه فيبذل جهده فى هضمه و إعداده وتنقيته وتنقيحه قدر ما يستطيع ثم يعرضه للناس فى الصورة المناسبة ولا يهمه بعد ذلك قبله الناس أو رفضوه فهو يبذل جهده خالصاً فى سبيل المجتمع ورقيه، ويشعر أن جزاءه فى عمله وحده وفى إرضاء ضميره، لا فى تقدير الناس له بالرفض أو القبول .. إن جزاءه الأكبر فى كدحه للوصول إلى الحقيقة كما يراها من زاويته وفى الغيرة على أبناء جنسه التى صاحبته وهو يقوم بهذا العمل المحمود . وفى هذا وحده الضمان ألا يكون الأدب والفن مصدر عبث وهدم وتخريب .

إنى أعتقد أن البشرية كانت تختصر نصف الطريق

أو أكثر لو أنها سمحت لكل فكرة جريئة أن تظهر وتستقر وتؤدى ثمرتها المرجوة ودورها المأمول .

وتحت سوء الظن من الدولة أو المجتمع والقيام بخنق الحركات الجديدة ضاعت ثروات من الأفكار القيمة والآراء السديدة ما لو قيس معه الواقع المشهود أمامنا وما وصلنا إليه من تقدم ورقى لكان شيئاً غير ذى بال .

فالمناخ الصالح للفكرة هو التسامح المطلق مع كل رأى آخر ودرسه بحرية مطلقة وإفساح الطريق لكل فكرة جديدة مهما تكن مناهضة لآرائنا ومعتقداتنا وكل حجر على حرية الرأى لأى عذر وأى تبرير يجب أن نجعله دبر آذاننا وليكن الحكم الفيصل بين ما لكل فكرة وما عليها هو موقف الرأى العام منها بعد دراسها وتمحيصها وإعطائها فرصة الحياة والظهور .

فالنقاش الحر هو الذى يكشف زيف الفكرة أو صدقها ويوضح صحيحها وباطلها . . وقد تكون الفكرة ناقصة فيكملها غير صاحبها . . وقد تتجلى لنا أثناء النقاش الحر أفكار أخرى لا تخطر على بال صاحب الفكرة أو من يعارضه .. . ويكفى أن يشعر كل صاحب رأى أنه محل احترام مواطنيه وأهلا لثقتهم ليضرم فى قلبه نار الإخلاص والكدح فى تقديم كل ما يمتع وما يفيد .

ولعلنا الآن نكون قد رددنا على الاعتراض الذى أثير فى الفصل الأول من المبدأ الأول وهو كيف نطبق مبدأ الجزاء الذاتى دون أن

نحدد تحديداً واضحاً معنى الفضيلة والرذيلة تحديداً لا سبيل إلى الشك فيه . فالوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذا أن يسود هذا المبدأ الثانى المتصل به والذى يكمله ويكاد يكون نتيجة حتمية له . وهو الحق من طريق الإقناع بالصورة التى وضحناها .

وإذا سادت فى المجتمع هاتان القيمتان الساميتان وتمكنتا من أصل بنيانه أن يشعر الفرد شعوراً يقينياً أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره فى الوقت الذى يقوم فيه بعمله من داخل ذاته لا من خارجها . . لا من جزاء القانون أو المجتمع أو تأثير الوعد بالجزاء الأخروى — وإن كان لا اعتراض لنا على الجزاءات الأخرى ولا نقلل من أهميتها ولا ننكرها فهى تدعيم طبيعى للجزاء الذاتى .

ثم يسود بعد ذلك الحق من طريق الإقناع فلا قوة أياً كانت تفرض عليك رأياً لا يرتضيه ضميرك ولا شيئاً تنفر منه بشعورك، إذا سادت فى المجتمع هاتان القيمتان العاليتان ماذا يترتب على ذلك ؟

(الثقة) .

فكما أن الحق من طريق الإقناع نتيجة طبيعية للجزاء الذاتى فكذلك الثقة ستكون نتيجة حتمية لهذين المبدأين مجتمعين .

المبدأ الثالث :

الثقة

لو سألتني الآن عما نعانيه فى هذه الأيام من قلق وتخوف وحذر وعما نضطرب فيه من انكماش وتردد وإحجام عن أى جديد . . لأجبتك فى كلمة واحدة « أزمة ثقة » لقد أصبح مرض اليوم بلا جدال « ثم قلب أنت النظر فى مجتمعك يميناً وشمالا وفتش فى زواياه وأركانه ثم عد إلى نفسك وأنعم النظر والروية فيما تجد من حواجز وعقبات ومن عدم القدرة على التآلف والتعاون ، والعزلة الشاملة والانطوائية القاتلة وحاول أن ترجع هذه المظاهر المتعددة إلى سبب رئيسى واحد فستجد الجواب أمامك واضحاً جلياً . . . إنها ... « أزمة الثقة » .

أزمة ثقة فى كل شىء وفى كل إنسان ومع الجميع .

أزمة ثقة متبادلة بين الوالد وولده والمدرس وتلميذه والزوج وزوجته والمرء ومرءوسيه والزميل وزميله وبين الجار وجاره والحاكم والمحكوم والتاجر والعميل ، وقس على ذلك كل ما بين الناس من صلات ومعاملات وروابط فى كل ناحية من نواحى الحياة .

وقل لى بعد ذلك كيف تسقط هذه القيمة العليا من سماء المجتمع وهى شمسه المضيئة ، وكيف تعزل عن كيانه وهى

روحه الحى . ثم يرجى لهذا المجتمع البقاء . فضلا عن النهوض والتقدم والارتقاء . . .

انظر إلى الفرد الذى فقد ثقته بنفسه تجده متردداً خائر العزم . كليل البصيرة لا يصمم على شيء حتى يرتد عنه ولا يقدم على عمل حتى يخور أمامه وتمضى أيامه تتنازعه الجواذب من يمين وشمال ، ويبدد عمره فى دائرة واحدة لا يتعداها ، ويفل عزمه عند الصدمة الأولى . انظر إلى فرد هذا حاله فستجد المجتمع كله على مثاله إذا فقد الثقة بنفسه ولكن على صورة أعمق وأعم وأشمل .

إننا نريد أن نفتح أعيننا جيداً ونفيق من دوامة الكارثة التى تغشانا ، ونبذل أخلص الجهد على قدر الاستطاعة لكيلا نصل إلى النهاية المنتظرة التى نحذرها ، ولا يتأتى ذلك إلا أن نبذل من ذواتنا أصدق الجهد متعاونين على الكشف عن العلل الأساسية التى أركستنا فيما نحن فيه ومحاولة الخلاص إنك تجد عند الجميع يأس العجز واستسلام البلادة ، لقد فترت إرادة الحياة فى النفوس ففترت الهمم عن الإرادة فى الخلاص مما جعل مهمة المصلح جد عسيرة لأنه أولا : فى حاجة إلى أن يوقظ إرادة الحياة فى النفوس التى سئمت الحياة الصحيحة والتى تعيش الآن فى سكرة ذاهلة وكأنها دمى تتحرك بلا قلب ولا روح .

ومع ما فى هذه المحاولة من صعوبة فيجب أن ننحى اليأس عن طريقنا وأن نعمل على الملاءمة مع هذا الدور بروح

التفاؤل والعزم المتين .

نريد تحديد الداء برد العلل الظاهرة إلى سببها الرئيسى وبعد ذلك يسهل العلاج ولكنا قبل هذا نريد أن نهز الروح الخامد كيما يستيقظ ، والهمم المتراخية كيما تنشط . وبعث الأمل من جديد .

إن علاج ما نحن فيه فى متناول أيدينا لو صدقنا الإرادة وما نحن فيه لم يأتنا قدراً أو يسقط علينا من السماء ، وإنما نحن صانعوه تحت ضغط ظروف تاريخية وعقيدية وسياسية ولو نحينا عن هذه الظروف ضراوتها لوجدنا الحياة التى نأملها . وأن ننعم بها كما أراد الله سخاء رخاء مترعة بالخير والحب والجمال.

ماذا كان من نتيجة فقد الثقة علينا أفراداً وجماعات . .

أستطيع الآن كعادتى أن أضرب مثالا واحداً يغنى عن كثير لأن فيه خلاصة المأساة من جميع نواحيها تاركا للجميع القياس والاستطراد..

منذ أعوام مضت أقبل إلى القاهرة طالب أعرفه وأعرف أسرته ، ليلتحق بالجامعة ، وسكن بمنزل فى أحد الأحياء الشعبية وكان يجاوره فى حجرته هذه رجل فى منتصف العقد الخامس من عمره تقريباً ، يعمل رئيس عمال بإحدى الشركات ، وكان الفتى كما عهدته : دمث الخلق ، يتحلى بالطباع الريفية التى تقدس رابطة الجوار . وأنس الرجل إليه فقربه منه وكان كثيراً ما يدعوه إلى سكنه بحضور زوجته ليتسامر معه واطمأن الفتى إلى ذلك ، ووجد فى علاقته بهذه الأسرة الطيبة

عوضاً له عن غربته وانقطاع صلته بأهله وكان ينظر إلى الرجل كوالد وإلى الزوجة كأم . .

وبعد أسابيع وجد الطالب أن الزوجة تستدعيه فى غياب زوجها وتلمح فى كلماتها وحركاتها ما جعله يشك فى نواياها ويستريب ، ولكنه نحى هذه الفكرة عن ذهنه معللا أن هذا دليل على شدة التقارب ورفع الكلفة . . ولما رأت أن الفتى لا يفهم — جعلت التلميح أقرب إلى التصريح — فارتاع وفزع ضميره وعالج ذلك بأن امتنع عن زيارة المسكن ما لم يكن بحضور الزوج . وأحست هى بمسلكه الجديد فجعلت تتردد عليه فى حجرته ساعة غياب زوجها وغالباً ما تكون فى ثياب تكشف أكثر مما تستر ولكنه ظل على ترفعه «وعناده رغم المحاولات المتعددة لاستمالته وإغرائه .

وذات يوم استأجر ساع بمكتب إحدى الشركات حجرة بأسفل المنزل فتركت صاحبنا واتجهت إلى القادم الجديد ولم يكن لهذا الأخير نصيب من الثقافة والخلق يعصمه من الانزلاق فاستجاب لرغبتها .

وانطوى الطالب على نفسه — بعد أن عرف قصتها — غماً وكمداً وامتنع عن زيارة المسكن حتى فى حضور الزوج لأن ضميره لم يحتمل أن يقابل زوجها دون أن يخبره بحقيقة الأمر ولو أخبره فسيفجعه فى أعز شىء مقدس . . . وهو الرجل الطيب وسيترتب على ذلك مشاكل لاعداد لها ووجد أن خير

طريق هو أن يعتزل الكل متجاهلا ما يحدث ، وهذا أضعف الإيمان .

وعرفت هي أن الخطر يكمن هنا . . . وأنه يجوز أن يأتى اليوم الذى يفلت فيه زمام أعصابه فيخبر زوجها لأنها كانت تثيره بهذا الساعى وكثيراً ما كانت تغازله على مرأى منه .

إذا فلتحطمه قبل أن يحطمها .. . فأفهمت زوجها بعد أن أظهرت التمنع والتردد أن سبب عزلة الطالب وابتعاده أنه غازلها فنهرته . وكان الفتى قد بدأ يبذل لها النصح من خلال تلميحاته فتهزأ من تلميحاته وفى ليلة عاد الفتى من الخارج وكان زوجها جالساً فى إحدى الحجرات إذ نادت عليه ودار بينهما الحوار التالى على مسمع من الزوج المخدوع :

هى — مش عيب يا فلان توجه لى مثل هذا الكلام وأنا زى والدتك . ؟

وأجاب الفتى خجلا وقد ظن أنها عادت إلى رشدها أنا آسف . . سامحينى . . أرجو ألا يتكرر ذلك . . .

هى : لا ... ماهودا مش أصول إن الرجل اللى دخلك بيته ووثق فيك زى ابنه وأكثر تقول لمراته الكلام ده . . يعنى لو سمع هوه بحادث زى كده . . أنت عارف حايحصل إيه . ؟

هو : حايسمع من مين دى حاجة بينى وبينك . . بس أنا كان قصدى . . .

ولم يدعه الرجل يتم كلامه إذ انطلق من داخل الحجرة

منتفضاً يغلى كالمرجل وهجم على الطالب المسكين فى عنف مسمعاً إياه كلمات السباب والتقريع ما لم يسمع بمثله فى حياته . . وبهت لهول المفاجأة وحاول أن يعرف أين كان هذا الرجل ولماذا يثور عليه هكذا وهو الذى بذل كل ما فى وسعه لينقذ شرفه وشرف أسرته من العار . وحاول أن يتكلم فأعوزه النطق . . فى الوقت الذى كان الرجل يقذف به فى عنف وغيظ إلى خارج مسكنه ويزوده بكلمات التقريع فى هياج المجنون . وعاد الطالب إلى حجرته يستعرض ما حدث مرتاعاً مما رأى وبعد أن هدأت نفسه راجع ما حدث وعرف كل شىء ولكن بعد فوات الأوان .

وضربت المرأة أكثر من عصفور بحجر .

اطمأنت أولا إلى ثقة زوجها لتعمل ما يحلو لها فى غفلته واطمأنت ثانياً إلى مصدر التهديد من جانب الطالب فلن تقوم له قائمة . وانتقمت ثالثاً من الذى ترفع عنها ولم يستجب لمشاركتها فى الإثم الكبير .

وفى صباح اليوم التالى جاءنى الفتى يروى لى القصة كما حدثت وهو مصمم على الانتحار إذ كيف يستطيع أن يواجه الرجل بعد ذلك وهو متهم بهذا الاتهام . وكيف يستطيع أن يواجه المجتمع وقد ساءت سمعته إلى هذا الحد .

الانتحار . . هو الحل الوحيد لكل هذا البلاء . .

ولكنى طردت من ذهنه فكرة الانتحار . بأن القاهرة

مدينة كبيرة لا يعرف فيها كما هو الحال فى الأقاليم ... كل ما عليه أن يغير مسكنه . وستنتهى مشكلته عند هذا الحد .

* * *

هذه حادثة واحدة نستطيع أن نتبين من خلالها مدى ما نعانيه من الوضع المؤلم المعكوس ونكشف على تفهمها موقفنا من الكوارث التى نتردى فيها كل يوم . أفراداً وجماعات .

فتى طيب الخلق ، عف النفس . مترفع عن الدنايا جدير بكل ثقة واحترام فى جانب .

وامرأة مستهترة تخون الثقة الزوجية المقدسة فى جانب آخر .. وزوج مخدوع يفهم الأمر على عكس ما كان ينبغى أن يكون فى جانب ثالث . . . ولعله لا يترك فرصة إلا ويشيد فيها بفضائل زوجته وعفتها التى ترتفع فوق مستوى الشبهات

هذا هو حال المجتمع اليوم فى كل شأن من شئونه عائلية أو اجتماعية أو سياسية .

وأناس خائنون غادرون معرضون عن كل فضيلة بعيدون عن كل خلق كريم يدفعهم تفكيرهم الشرير الآثم إلى مداراة عيوبهم وستر نقائصهم . وخداع الجميع . ولا يكفيهم ذلك بل يتهمون غيرهم من الشرفاء بعيوبهم وإلباسهم نقائصهم .

وأناس شرفاء فضلاء متمسكون بالخلق القويم لا يجدون فيما يفعلونه ما يستحق الضجيج أو الظهور فلا يحس بوجودهم أحد

وهم مع ذلك عرضة للاتهام وسوء الظن والتأويل .

تجد اللصوص أكثر الناس حديثاً عن الأمانة وتجد الأمناء الحقيقيين لا يرددون مثل هذا الحديث تجد الفجرة والفاسقين أكثر الناس تمسكاً بمظاهر الفضيلة وتجد الأطهار الفضلاء قلما يهتمون بهذه المظاهر . تجد الفارغين التافهين أكثر الناس حديثاً عن الجد والعمل الصالح . وهناك الأكفاء الممتازون يقومون بواجبهم فى إخلاص وأمانة ولا يبدون هذه الغيرة الجوفاء فكيف نتبين من خلال هذا الضباب طريق الصواب .

وهذا ما حدا الكثير منا إلى نبذ الأمل من صلاح الحال واستحالة عودة الوضع الطبيعي كما ينبغى أن يكون .

افتح باب الجرائم فى الصحف وطف بدور المحاكم لترى فنون الخداع والوقيعة وسر فى كل ناحية ومسلك حيث احتكاك العلاقات والمعاملات من أفراد مجتمعك فى الشارع فى الأتوبيس والسينما وفى دور البيع والشراء لتدرك حالة الحذر والفزع التى يعانيها الإنسان من أخيه الإنسان . ثم سائل نفسك . أفى مجتمع نحن أم فى غابة يخيل لى أن حضارتنا هذه رغم المظهر الخادع الذى يبدو لنا هى الامتداد لحياة الغابة على طراز أرقى .

لقد كان شعار الإنسان فى عهد الغابة « اقتل وإلا قتلت » وحينما تغوص فى أعماق المعاملات الاجتماعية الآن فى كل وجوه نشاطنا تجد أثر هذا الشعار محفوراً فى الأعماق وأن الاختلاف

لا يتعدى المظهر كمن يصافحك باليد اليمنى والخنجر فى اليسرى فيغلف لك حقده وضراوته فى ابتسامة تخفى وراءها الموت الزؤام .

كهذا الرجل الذى سافر من بلاد نيام نيام إلى إنجلترا وأقام فيها زمناً طويلا حصل خلاله على أرقى الإجازات العلمية وبعد عودته اعتزم أحد زملائه من الإنجليز زيارته . . وشد ما راعه أن رآه كدأب قومه لا يزال يأكل لحوم البشر . ولما لاحظ ما على وجه زميله الإنجليزى من الدهشة والاستغراب أجابه بأنه لا يأكله على الطريقة البدائية التى يستعملها قومه وإنما يستعمل الشوكة والسكين .

أرأيتم أن الخلاف فى المظهر وحده ؟ هذا هو حال المجتمع اليوم مع اختلاف طفيف . . .

وسبب هذا شيء واحد « أزمة ثقة » إذا فبالثقة وحدها . نستطيع أن نفخر بأننا أقمنا مجتمعاً متحضراً ولكن كيف السبيل .

هل نبشر بها على أعواد المنابر وفى أنهار الصحف . ؟ هل ينتشر الوعاظ والخطباء فى كل مكان يدعون إليها وهل مثل هذا يجدى الآن بعد أن بينا أن الناس أصبحت لا تثق — على الأخص — فى هؤلاء الذين يشحذون ألسنتهم بالغيرة على الفضيلة .

إذاً هل نستسلم حتى تأتينا الكارثة التى لابد منها إن استمر الحال على هذا المنوال .

نريد أن نعرف على التحديد هل الطريق إليها عسير : أم مستحيل ؟ أنا أجزم أنها تدخل فى حدود الإمكان على أن تقام على الدعامتين السابقتين . « الجزاء الذاتى والحق من طريق الإقناع » .

فحينما يتأكد كل فرد أن المجتمع يسود فيه مبدأ الجزاء الذاتى فلا يستغله بل يبذل كل جهده ليؤدى له الخير وأنه لا يخدعه وإنما يبذل كل ما فى طوقه ليلقى إليه بكلمة الحق . اذا تتحطم العوائق التى تقف فى طريق الثقة وسيصير قيامها بيننا أمراً ميسوراً إن لم يكن أمراً محتوماً .

حتى إننا نستطيع أن نقول إن :

الجزاء الذاتى + الحق من طريق الإقناع = ثقة .

ونؤمن أننا لا نجد معترضاً عاقلا يراجعنا فيما نقول .

المبدأ الرابع :

الحب

هل يمكن أن نقيم مجتمعاً على الحب .

سؤال طالما دار بأذهان الفلاسفة الأخيار والمفكرين المثاليين من قديم الزمان ولكن الوصول إليه جد عسير . . . لأن الذين نادوا به وبشروا لم يعرفوا الطريق إليه أو . . لأنهم نادوا به منفرداً فلم يزيلوا من طريقه العوائق التى تجعل الوصول إليه سهلا طيباً ولذلك ظل على مدى التاريخ فى مكانه الأسمى لم نستطع أن نصل إليه .

ونحن إذ ننادى بإقامة المجتمع على الحب لا نقصد من هذا أنها دعوة إلى ترف يمكن الاستغناء منه ولكنها ضرورة غفلنا عنها فوصلنا إلى ما وصلنا إليه .

فالمسألة التى نحاول أن نضغط عليها ونزيدها إيضاحاً أننا يجب أن نفرق بين الحياة التى نعيشها والحياة التى نأملها . فبعد أن يئسنا من الوصول إلى الحياة الفاضلة استسلمنا للواقع واعتقدنا أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

هذا هو الخطأ الأكبر .

إن فى الإمكان دائماً . أن نصل إلى مستوى أحلامنا لو وطدنا العزم وعرفنا الطريق بيد أننا نريد أن نأخذ الأمور

الجسام باليسر الذى نتناول به أيسر الأشياء مع أننا نملك الطاقة الكافية لتحويل كل شيء إلى ما ينبغى أن يكون .

ولأننا لم نجرب الحياة فى ظلال الحب . لم نشعر بحقيقتها ولكنا لو جربنا الحب كقيمة جماعية لعز علينا بعد ذلك أن ننزل عن مستواه مهما يكن الثمن أو العوض المقابل . ونرضى ثانية بهذه الحياة المهينة التى نعيش فيها الآن فى ظل الكراهية والصدام .

ونستطيع الآن أن نضرب مثلا يغنى عن كثير ويوصلنا إلى فهم الحقيقة بطريقة علمية ملموسة .

لقد ظل العالم فى تاريخه الطويل البالغ آلاف السنين حتى القرن التاسع عشر بلا كهرباء . . . وكان يمكن — لولا العبقرى الذى اكتشفها — أن يعيش حتى الآن بلا كهرباء . . . ولم يكن يظن أو يخطر فى باله أو حتى فى أحلامه أن هناك شيئاً فى هذا الوجود اسمه الكهرباء .

ولكنا بعد أن اكتشفناها وكيفنا حياتنا وفقاً لها هل نتخيل أننا نستطيع أن نعيش بلا كهرباء . ولنتصور مدى الارتباك الذى نعانيه حينما ينقطع التيار لسبب من الأسباب بضع أيام .. بل بضع ساعات . . .

هذا بالنسبة لشيء مادى فى حياتنا . فما بالنا إذا أرضينا الضرورة العاطفية بالحب ؟ .

نعم نحن نؤمن وعلم النفس يؤيدنا فى هذا أنه ضرورة

عاطفية وليس إغفالنا لها كل هذا الزمن الطويل بالذى ينفى وجودها بل لعله أصلح شاهد عليها لما نعانيه من عدم تطبيقها من كل هذه الويلات . وقد حدثنى أحد معارفى أن زميلا فى دفعته الجامعية سافر فى بعثة إلى أمريكا ليلتحق بمعهد اجتماعى فكلفه أستاذه بالمعهد أن يقوم ببحث بعض حالات اجتماعية لحى من الأحياء الفقيرة فى نيويورك وذهب الطالب المصرى وهو معتقد أنه سيرى حالة من حالات الفقر التى كان يراها فى زوايا الأحياء الشعبية بالقاهرة والأقاليم وشد ما راعه أن رأى معظم الذين زارهم وبحث حالتهم يملكون فى منازلهم الفريجدير والتليفون والمكنسة الكهربائية وغير ذلك . وعاد يكتب فى تقريره بناء على هذه المعلومات أن الحى الذى زاره يتمتع أصحابه بمستوى مادى مرتفع واستدعاه أستاذه بعد قراءة التقرير ليسأله عن الأسباب الأخرى التى توصل إليها فى بحثه فأجاب الطالب : لقد كتبتها فى تقريرى . . فرد عليه الأستاذ باسماً شارحاً له أن ما ذكره فى تقريره إنما هى الضروريات التى لا يمكن لفرد أن ينزل عن مستواها هذا هو الفرق بين بلدين فى عصر واحد تحولت الكماليات المادية بزيادة الدخل أو بتوفر الطاقة إلى ضروريات فما بالنا إذا أتحنا الفرصة للضرورة الروحية أن تتنفس فى جوها الطليق . . .

* * *

ويحسن أن نعرج هنا على الأهداف التى ثار حولها الخلاف بين فلاسفة الأخلاق على مر العصور وتنحصر فى ثلاثة أشياء

١ — الباعث . . .

٢ — القيمة . . .

٣ — الغاية أو الأثر . . .

هذه هى المجالات الثلاثة التى يوالى فلاسفة الأخلاق الدرس فيها والتطور بها والاختلاف عليها .

فمنهم من يضع الباعث فى الدرجة الأولى ومنهم من يتمسك بالقيمة ومنهم من يهدف إلى الأثر . .

فلنتتبع وجهة نظرهم فى هذه المجالات الثلاثة .

وننظر إلى القيمة وحدها ولنتخذ الصدق مثلا فهو قيمة أخلاقية متفق عليها من الجميع . .

ولكنا نرى أثرها سيئاً إذا قلنا الصدق لاثنين متخاصمين عما قال أحدهما فى الآخر حالة غضبه حين نريد الصلح بينهما .

فإذا تمسكنا بالأثر وحده وطبقناه على بناء مستشفى مثلا بناه صاحبه للفخر والمباهاة وليتحدث الناس عن كرمه وإحسانه وآخر بناه بدافع العاطفة النبيلة والرحمة للمحتاجين من المرضى لتجلى لنا بعد ذلك المجال الحقيقى للخلق .

إنه الباعث وحده . . .

لماذا ؟ . .

لأننا لو نظرنا إلى باعث الكذب للصلح بين المتخاصمين

وهو سيادة المودة بدل الجفوة والقطيعة لغضضنا النظر عن القيمة والغض هنا لا يضر بها .

ولكنا لو غضضنا عن الباعث بين الاثنين فى بناء المستشفى لكان معنى ذلك سيادة النفاق كخلق . والنفاق إذا انتشر تقوض بناء المجتمع .

وفى المثل إذا حسن الباعث — وهو سيادة السلام — اطمأننا إلى كل الأعمال اللاحقة لهذا الشخص وهو انصرافه عن القيمة لضرورة أو لقيمة أرفع منها .

إذاً فحيث يكون خط سير الباعث يكون المجتمع .

وهنا يبدو سؤال آخر . . .

هل يترك الإنسان القيمة المثلى إذا ترتب عليها ضرر ؟

والإجابة هنا دقيقة .

هناك فرق بين الضرر الواقع على الفرد نفسه من التمسك بالقيمة وبين الضرر الواقع على المجتمع . . فإن كان الضرر واقعاً على الفرد فى سبيل المجتمع فيلزمه الباعث الخلقى ألا يتخلى المرء عن القيمة بل يتبعها مهما يكن الثمن كالاستشهاد فى سبيل الوطن أو فى سبيل عقيدة عليا .

أما إن كان فى سبيل قيمة أعلى من الصدق وهى السلام — كما بينا سابقاً — فعلى المرء أن يتخلى عن القيمة الصغرى فى سبيل قيمة كبرى وأن يوازن ما بينهما .

وما الدافع الأصيل الوحيد الذى يجعل المرء يرضى بالضرر

الواقع عليه ولا يرضى بالضرر الواقع على غيره .. وبعبارة أخرى ما وراء الباعث . .

إنه الحب . .

إننا حين نقيم مجتمعاً على الحب وننعم بمزاياه سنتلفت خلفنا لنترحم على هؤلاء الآباء والأجداد عبر التاريخ كله وسنأسى عليهم ونرثى لهم . . لا لأنهم عاشوا حياتهم بلا ميكانيكا أو كهرباء وما إليها من الوسائل المادية ولكن لأنهم حرموا نعمة الحب الجماعى فلم يستمتعوا بهذه العاطفة النبيلة السامية أمتع وأرقى عاطفة فى الوجود .

إن محمداً رسول الله وصف الجنة فقال: « فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» .

والقرآن يصف لنا حال المقيمين بها ليرينا أن الجديرين بمتعة الحياة فى الجنة هم هؤلاء : « ونزعنا ما فى قلوبهم من غل إخواناً على سرر متقابلين » .

فإذا كان نعيم الجنة فوق إدراكنا . . بل فوق خيالنا لا نستطيع أن نتعرف عليه بوسائلنا البشرية فإن فينا من القوى الروحية ما يمكننا أن نكون على مثل حال الجديرين بالإقامة فيها بأن ننزع ما فى صدورنا من غل وأن نعيش إخواناً متحابين متآلفين .

ولماذا نتباغض ونحن نقطع معاً رحلة الحياة . . . فلماذا نقطعها متخاذلين متدابرين .

فالإنسان هو العنصر الوحيد الذى يجعلنا نحس للحياة

طعماً وللوجود قيمة وأعتقد جازماً أنه لو قيل لأبشع أنانى على ظهر الأرض .. إننا على استعداد أن نهبه كل ما فى الدنيا من ذهب وكنوز وعلوم ومساكن وغيرها . . ليعيش بها وحده لا يشاركه فيها مشارك ولن يكون على ظهر الأرض غيره إذاً لكان الرد بالرفض القاطع المبين .

جرب أن تسير وحدك فى صحراء خالية من الناس لتحس الوحشة وتستشعر الخوف .. . بل سر فى شوارع العاصمة ذاتها بعد منتصف الليل . . إن الشوارع هى الشوارع . . والأنوار هى الأنوار . . ولكنها خالية من العنصر الرئيسى الذى يضفى البهجة على كل شىء . . . إنه الإنسان . .

هذا مع الوضع المزرى الحاضر الذى نعيش فيه ، فما بالنا لو كان ذلك فى مجتمع يقدس الحب ويعتبره فى المنزلة العليا .

إننا لا نستطيع أن نحب الإنسان الحب الصحيح ما لم نحترمه — فلا يظفر قليل الاحترام بالحب — وحتى نحترمه لابد أن نقدره قدره فنراه على حقيقته كأبدع وأروع مجلى لعظمة الله وقدرته وإبداعه .

إن ضغط الظروف الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية هى التى فرقت بين الأخ وأخيه وقسمت الجنس الواحد على نفسه وجعلت منه المستغل والمستغل . والسيد والتابع وصاحب السلطة والعبد الذليل .

وماذا جنى الإنسان من هذا التقسيم ؟ لا شىء . . .

إلا الحقد والتربص والحذر والألم الوضيع فحتى الألم مع الحب ألم نبيل عزيز أما ألم الحقد والكراهية فهو ألم مظلم كالح يقطر السم من ثناياه .

انظر إلى ألم الأم مع طفلها . وهى تسهر عليه الليالى الطوال لترعاه وتسكب عليه من فرط حنانها ومن ذوب وجدانها وقارن بينه وبين ألم الحقد والمناجزة والمعاداة .

هذا ألم يكسب النفس صفاء ويرتفع بها إلى السماء .

وهذا ألم يلف النفس بسواد الظلمة ويهوى بها إلى الحضيض .

مع الحب كل شىء جميل ممتع حتى الألم . وفى المعاداة كل شىء بغيض قابض . . حتى النصر ، إن هذه الحياة . . حياتنا . . علينا أن نكيفها وفق ما نحب ونهوى والكراهية ليست عنصراً أصيلا فى طبيعتنا ولكنها شىء مدخول ورثناه مع التركة الخائبة التى أورثنا إياها من جهلوا فن الحياة . . فإذا بشرنا اليوم برسالة الحب فإننا لا ننشد المستحيل ولا نضرب فى بيداء الأوهام ولكنا نريد أن نصحح الوضع المعكوس وأن نستمتع بأرقى عاطفة وهبت للإنسان وأنبلها وهى أن يكون محباً محبوباً . ولكن الوصول إليه ليس بالسهولة التى نتصورها كما أنه ليس مستحيلا . . كل ما علينا أن نعرف سبيله وننحى العوائق عنه ونحن بعد ذلك فى حاجة إلى رياضة نفسية تسمو بنا إلى مستواه . . .

وليس هذا غريبا .

فالذى يريد أن يقوى بدنه وهو أيسر ما يملك لابد له من التزام أصول الرياضة البدنية التى يحددها المختصون والزمان اللازم لذلك .

والذى يريد أن يحصل على مزيد من المعرفة أو على درجة علمية لابد له من رياضة عقلية وسهر فى المطالعة والتفكير وشحذ جميع القوى الفكرية والعقلية .

فلماذا حينما ننشد حياة فاضلة . فى مجموعها العام نريد أن نتناولها بأيسر سبيل .

فالرياضة النفسية هنا ألزم — لكى نحيا حياة أفضل — ألزم من اهتمامنا بالرياضة البدنية والعقلية مع تركيز اهتمامنا فيهما وترك الاهتمام بما يجب أن يقوم فى المقام الأول .

فى ظلال الحب . . . ستختفى كل الصفات الموروثة من حياة الغابة كالحقد والحسد والصراع لأتفه الأشياء . .

أجل ستنقرض هذه الصفات التى لا تليق بإنسان متحضر لتحل محلها صفات عليا جديرة بكلمة إنسان . .

وحينما نلتزم المبادئ الثلاثة التى عرجنا عليها آنفاً نكون قد نحينا كل العوائق التى وقفت فى طريق الحب . من تاريخنا كله .

وحينما يثق كل فرد أن الآخرين يدينون بمبدأ الجزاء الذاتى فيفعلون الخير لوجه الخير ثم يقدمون ما اهتدوا له من حقيقة بلا ضغط ولا خداع ، ويتبادلون معه الثقة فى كل شأن من شئونه فماذا

بعد ذلك سيبقى فى الطريق ؟ ؟

النتيجة الطبيعية لهذا كله أن ينمو فى داخلنا روح المحبة والإخاء وما يتولد عنه من فضائل وصفات حتى إننا نستطيع أن نجزم بصحة هذه المعادلة .

الجزاء الذاتى الحق من طريق الإقناع + الثقة = الحب .

ونحن واثقون من سلامة التقدير .

المبدأ الخامس

« الحرية »

مشكلة المشاكل بلا جدال . . .

وهى التى حيرت أصحاب المواهب من رجال الفكر والفلسفة وواضعى النظم على اختلافها منذ فجر التاريخ حتى اليوم والتى لم يتفق على مدلولها نظام مع غيره . . . ووقف الكل يتشدق بها ويدعيها لنفسه وينكر فهمها على الآخرين . .

هى الشىء الوحيد الذى احتضنه أصدقاؤه وأعداؤه معاً . فليس هناك من نظام مهما يبلغ من السوء إلا بشر بها ، وليس هناك من حاكم مهما يطغى إلا جعلها على رأس هتافاته . وضاعت فى زحمة الدعوات معالمها وانطمست حدودها فلا تستطيع أن تتبينها وسط الضجة وإن دققت النظر وأحكمت الأداء .

ولا شك أن من بين من بشّر بها أناساً مخلصين تعبدوا فى محرابها عن عقيدة وإيمان ولكن خطأهم أنهم ضلوا الطريق إليها فلم يقيموها على الأساس الصحيح الذى يجب أن تقام عليه كل القيم .

لم يقيموها على الأساس الداخلى للنفس وإنما أقاموها

من الخارج ونظموا لها الحدود فكانوا لها كأعدائها لأن البناء الذى أقاموه على غير أساس لا يلبث أن ينزاح مع أول عاصفة تعبر الطريق .

إن الديمقراطية بمعناها الأصيل لتعد أعظم وأنبل دعوة وجدت لتمجيد الحرية فى تاريخ الإنسان حتى الآن ولكنها على الرغم من مزاياها التى لا تنكر لا تستطيع أن تدعى أنها أحاطت بالمشكلة من جميع وجوهها فلا يزال فى بنائها الضخم العتيد ثغرات وثغرات .

ما أقصى ما وصلت إليه الديمقراطية حتى الآن على أحدث التفاسير ؟ إنها حكم الأغلبية أى التى تعمل لصالح الأكثرية المطلقة لا لصالح أقلية مهما كان لونها ومنزلتها .

ولكن هذه الأقلية — مهما كانت ضئيلة — ولو كانت تعد بالآحاد ما ذنبها ؟ من يتولى حمايتها ؟ بل ما ذنب فرد واحد فى المجتمع كله يحس أنه غريب فى وطنه مهدور الرعاية أو ساقط الاعتبار ؟ .

فالنظام الذى يفخر بأنه سند الأغلبية من رعاياه إنما هو نظام سيئ . أو هو لم يبلغ من الصلاحية الحد الذى يجب أن نقف عنده ونركن إليه .

يقول القرآن الكريم: (ومن قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) هكذا . . . فحياة الجميع وحدة لا تقبل التجزئة

وكذلك الحرية لا تتجزأ فالدولة التى يظلم فرد واحد من رعاياها أو يشعر أنه غريب فى وطنه أولا تتاح له الحرية المطلقة ليعمل ما يستطيع أن يعمل ويقول ما يريد أن يقول هى دولة غير جديرة بقيامها أو احترامها . . . . لأنها سلبته حريته التى هى صنو حياته وعاقبته بلا ذنب ولا جريمة وقد يعدل هذا الفرد الواحد الأمة بأسرها لو أقمنا له الميزان .

يقول توماس جيفرسون « إن الله الذى وهب للإنسان الحياة وهبه الحرية فى نفس اللحظة ولنفس السبب » فلا نتصور أن نفصل بين الحياة والحرية فهما متلازمان كالروح والجسد .

هذه هى الغاية . . . ولكن كيف السبيل . . .

السبيل أن نتجنب الأخطاء التى وقع فيها السابقون من الدعوة إلى القيم العليا دعوة انفرادية فلم يدركوا ما بين القيم من ترابط ولم ينظموها التنظيم الصحيح . . وليس معنى هذا أن نقف عند هذه النقطة لا نتعداها ولكننا نشكر لهم محاولاتهم الصادقة وتضحياتهم الجريئة فى هذا السبيل ونستخلص العبرة مما مضى فلا نكرر الأخطاء وسيكون الوصول إلى الطريق الصحيح تتويجاً لجهودهم البارة الخيرة فى نشدان الحقيقة والسمو والكمال . .

* * *

لا يمكن أن تسود فى المجتمع هذه القيمة العليا (الحرية) إلا إذا تحرر كل فرد من نفسه أولا : من أنانيته الضيقة ونظره إلى

الأمور من زاويته وحدها وعدم الاهتمام أو عدم الاحترام لرأى الآخرين . وبعد أن تسود فى المجتمع كل القيم العليا التى قدمناها والتى يكون بها الإنسان إنسانا . .

فالحرية الحقيقية هى الغاية النهائية لبنى البشر . . .

هى الشاهد على أنهم تخطوا صعداً كل الدرجات العلى وبلغوا القمة التى لا غاية وراءها ولا زيادة بعدها لمستزيد . . . لا بد أن تسود فى المجتمع هذه القيم أولا . . .

الجزاء الذاتى — الحق من طريق الإقناع — الثقة — الحب . . وبعد ذلك تكون الحرية .

فإذا سادت هذه القيم تكون الحرية نتيجة طبيعية لها فالمجتمع لا يحد من حرية فرد من أفراده ما دام يعمل بمبدأ الجزاء الذاتى فيقدم كل ما فى وسعه من خير . . . ويبذل جهده مبشراً بكلمة الحق . . . ويتبادل معه الثقة فى كل خطوة يخطوها — ثم يكن له أصدق الحب فلماذا لا يتركه حراً؟ إن حريته حينئذ ستكون فى خدمة المجموع . . لن يكون له نشاط هدام أو خروج على القانون . . سيكون نشاطه كله فى خدمة البشرية علماً وجهداً وفناً . .

فحينما نقصد الحرية لا نقصدها بمعناها المعروف وحده . . كحرية الوطن وحرية الجماعة وما إليها فهذه مدلولها قد تحدد فى الأذهان والواقع على صورة واضحة ملموسة . .

ولكننا نقصد الحرية بمعناها الأخص للفرد لكى يعمل على

تحقيق ذاته . . . هذه هي الحرية التي نبشر بها وندعو إليها . .
أن تتوفر لكل فرد ضرورات الحياة من الأمن المعنوى والمادى
كي ينعم بما يكتشفه فى داخله من فكر وعاطفة وشعور من
خلال تفاعله مع الكون أو تجاوبه مع الإنسان .

نريد للفرد أن يتفاعل مع الكون فى كل خفقة من خفقات
قلبه وأن يتجاوب مع الإنسان فى كل همسة من همسات روحه .

وحينما تبلغ الحرية مداها إلى هذا الحد يتحول الوجود إلى
موسيقى سرمدية رائعة وتنتفى حدة الشر والخطأ والتحدى والسيطرة
وتخضع كل القوانين الوضيعة للحرية فى مدلولها الواسع .

فيكون للطفل حريته فى العبث المناسب له وللشاب حريته
فى إظهار التفوق والتحصيل . . حتى مظاهر الاعتزاز والغرور .
وللرجل الناضج تفكيره السليم المبنى على التجربة والثقة
وللشيخ تأملاته وفلسفاته على النحو الذى يريد، وستتفرع
من هذه الاختلافات الرئيسية اختلافات جزئية أخرى لا حصر
لها حتى يكون لكل فرد صورة متميزة خاصة . لا يشاركه فيها
غيره . ولكن هذا الاختلاف الفردى وسيلة إلى التآلف الجمعى
فى نهاية الأمر كما نعدد أنغام الموسيقى وتتفق فى الوصول إلى لحن
موحد جميل لا أن يصاغ الكل تحت وطأة الضغط القاسى فى
قالب واحد متكرر ممل رتيب .

فالحرية بهذا المعنى ضرورة إنسانية من فقدها فقد إنسانيته
وأصبح شبحاً بلا روح .

لأن الفرد الذى لا يتصرف أى تصرف إلا بعد أن يستشير القانون ثم يحسب حساب تقاليد المجتمع ويقدر الظروف الداخلية والخارجية المستطاعة . . مثل هذا الفرد لا يمكن أن يقوم فى حياته بعشر معشار ما ركب فى طبيعته من مزايا ومواهب . . . وكذلك الذى يكافح الضرورات الأولية اتقاء الفقر والخوف لن يجد الوقت الكافى للبحث فى تحقيق ذاته ولإبراز ما فيها من خير وجمال يسعد هو بالكشف عنه والعمل له ويسعد الآخرون بالتذوق والاستجابة والاستقبال .

ولذلك فنحن حينما نربط الحرية بالقيم السابقة لا نقيدها . . وإنما ننحى عنها عوامل الفوضى التى هى أشد خطراً من كل قيد :

ولا شك أن من أهم أسباب فشل الدعوات السابقة للحرية وعدم استجابة الناس لها كان مرده الخوف من خطر الانزلاق فى الفوضى .

فلا عاصم لنا حتى ونحن نبحث عن الحرية فى مدلولها الأسمى أن نقيدها ببعض القيود ولكنها ليست قيوداً مفروضة من الخارج كسلطة القانون أو سلطة الحاكم أو الفزع من الرأى العام . .

ولكنها قيود نابعة من الداخل . من فيض الإرادة ووحى الضمير .

الحياة

كل ما قدمناه من القيم السابقة إنما هو مقدمة لنتيجة نبتغيها وغاية نرجوها .

فما هى هذه النتيجة وما هى هذه الغاية .

إنها الحياة . . .

الحياة المظلومة التى نعيناها فى أشعارنا وتبرمنا بها وسخرنا منها ووصفناها بأقبح الصفات أنا لا ألوم من سخر أو تبرم . . ولا أهزأ بمن نعاها وتمرد عليها . . لأنها بوضعها الحالى لا تستحق الاهتمام فضلا عن الاحترام . ولكن اللوم كل اللوم على من يجد الحياة الصحيحة ثم ينكص على عقبيه لأنه يريد أن يتناولها بأيسر سبيل .

الحياة جميلة ومن طلب الحسناء لا يغلها المهر .

والحياة الراقية الرفيعة معقدة . . فليكن لنا من الإعداد النفسى ما يجعلنا نتناول تعقيدها ببساطة أى أن نكون لها أكفاء انظر إلى العامل عندما يقوم بإعداد آلة فى أول أمره تجده مضطرباً يتناول أبسط الأشياء فى حذر وتردد ثم انظر إليه بعد أن أتقن مهنته ومرن عليها تجده يتناول أعقد الأشياء بسهولة ويسر بل تراه يقوم بأدق الأعمال جيداً وهو يتحدث إليك أو يتشاغل بعمل آخر .

هكذا يكون موقفنا من الحياة فى تعقيدها . . . لا نريدها بسيطة دنيئة فتلك حياة حيوانية لا يرضاها الإنسان الراقى وإنما نريدها عزيزة معقدة سامية ثم نروّض النفس عليها فنجنى منها ثمارها الشهية على قدر الإمكان فى حدود ما توصلنا إليه من علم وفن وتجربة .

فالحياة التى نريدها إنما هى جماع القيم العليا ولن تكون بالسعادة المرجوة إلا إذا أقمناها على تلك القيم . فقاعدة الاكتفاء الذاتى لا تصلح للحياة فى مجموعها لأن هذه الحياة المنشودة تقوم على التعاون والحب . فلو كانت الحياة قائمة على الاكتفاء الذاتى لحرمنا أجمل معانى الوجود من الحب والمودة والألفة . . . فلا مفر لنا إن كنا نبغي الحياة الصحيحة من أن يعمل أحدنا من أجل الآخر مادة ومعنى . وفى النهاية سنجد المحصول المتبادل أكثر نفعاً وأعم فائدة مما لو كنا أنانيين مغرقين فى الأنانية .

فالذى يجمع المال بأى وسيلة لن يسعد به السعادة المأمولة لأنه يهدر قانون الحياة الطبيعي فيحتجن لنفسه ما ليس أهلا له . ويهدر قانون الوجود الإنسانى بانعزاله عن الجماعة وانطوائه على نفسه وسيحرم من نعمة الحب والتعاون ولن يجنى إلا الحذر والخوف على ما جمع .

فنحن حينما ننشد الحياة الفاضلة السعيدة إنما ننشدها اللجميع حتى للأنانيين أنفسهم فإنهم لن يبلغوا بأنانيتهم مهما ستشرت وتضخمت ولو ملكوا كل ما على الأرض من كنوز

ما يعدل بسمة رضا من صديق أو انعطاف مودة من حبيب .

هذه هي مصادر الثروة الحقيقية . .

الثروة الإنسانية . . التعاطف الإنسانى . . البر الإنسانى . . الحب الإنسانى . هي التى تجعلنا نرتشف حلاوة الحياة التى حرمناها فى تاريخنا كله .

ونحن لا نقصد بحديثنا عن القيم العليا التى بيناها سابقاً أننا أبرزنا كل ما فيها من جمال وفائدة أو أتينا بجديد لم يأت به الأوائل وإنما أشرنا إلى مزايا كل قيمة إشارة عابرة . لأننا لا ننكر على السابقين أنهم تنبهوا إليها . فقد كان لكل قيمة عليا أنبياؤها وشهداؤها ولو أردنا أن نسرد مزايا كل قيمة فلن نجد أبدع مما تغنى به رسلها السابقون فى كل مكان وزمان .. وإنما كل همنا هنا هو تقرير القواعد وإرساء الأصول وتبيان الأخطاء التى اعترضت طريق السابقين لنعمل على تفاديها .

* * *

أول هذه الأخطاء هى النظرة الانفرادية .

فالذين بشروا بالثقة أو الحب أو الحرية ركزوا اهتمامهم بها وغفلوا عما عداها وتغنوا بها على أنها مثل أعلى لا يمكن تطبيقه كالشاعر العذرى الذى يتغنى بجمال محبوبته وهو لا يراها . فإن رآها خلع عليها من فرط القداسة ما ينأى به عن ملامستها .

ثانيها — أنهم لم يقيموها على الأساس النفسى من الداخل

وإنما أقاموها على السطح من الخارج فلم تثبت أمام زعزعة الأعاصير .

ثالثها — أنهم كانوا يقنعون بالإصلاح الجزئى وبالترقيع للنظم السائدة ولكننا هنا أطحنا بالبناء المتداعى من أساسه وأقمنا على أنقاضه حياة متكاملة ووضحنا السبيل للسالك بلا تيه ولا ألغاز ولا معميات وهو قابل للتطور والسمو به درجات بعد درجات على مدى الأجيال .

* * *

وحينما نصل بالحياة إلى هذا المستوى الكريم سيجد الفرد كل ما فى الحياة من جهد وفكر وخير فى متناول يده بلا من ولا ثمن . . كما يروى عن أمير المؤمنين هارون الرشيد أنه رأى غمامة تمر فوقه ولم تمطر فرفع بصره إليها وقال : أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك .

قالها وهو يتمتع بعزة الملك وانفساح الرقعة تحت إمرته . . .
أما بعد تطبيق هذه المبادئ فسيكون فى وسع كل فرد عادى أن يقول لكل ثمار الحياة من جهد وفكر وفن أينعى حيث شئت فستأتينى ثمارك . .

سيكون ما على الأرض من ثروات مادية وروحية ملك للجميع ولكل إنسان لأنه إنسان لا لملك متجبر أو حاكم متكبر أو عظيم مغرور .

وعلى ذلك فستكون حياتنا منذ الآن على هذا النمط البديع .

الجزاء الذاتى + الحق عن طريق الإقناع + الثقة + الحب + الحرية = حياة .

إذاً فدعوتنا ليست دعوة أخلاقية غايتها تمجيد الأخلاق والتغنى بمحامدها ولا ندعى هنا أننا أتينا بجديد . لقد أفاض فلاسفة الأخلاق وشراحها فى مزية كل قيمة على حدة بما لا نطمع نحن ولا غيرنا فى أكثر منه ولكن الجديد فى دعوتنا أنها أبعد مدى وأوسع ميداناً ... إنها دعوة إلى حياة أفضل وتحديد الوسائل التى نمارس بها هذه الحياة وإفساح المجال لكى نحياها فى كل منحى من مناحيها وكل معنى من معانيها عن طريق هذا الترابط الذى أسلفنا الإشارة إليه . .

سؤال

عندما أرجع الآن بفكرى إلى الوراء إلى فجر شبابى وأتذكر هذا السؤال الحائر الذى طاف بنفسى لأول مرة (ألا نستطيع أن نقيم مجتمعنا على الحب) ؟

كان ذلك منذ عشرين عاماً . . .

ولم أكن أتوقع أن أجد جواباً فقد كنت ساعتئذ متأكداً من استحالة تحقيق هذا الجواب وإنما كان هروباً من ضيق الواقع إلى فسحة الأحلام .

ومع ذلك ما فتئ هذا السؤال يقفز إلى ذهنى كلما رأيت كيف يعيش الناس وكيف يتعاملون وكيف يتصرفون تصرفاً كله الغش والخداع والنفاق . .

وبعد سنوات من استمرار الإلحاح بدأت أفكر تفكيراً جديا إذ اتخذ السؤال صيغة أخرى (ما الذى يحول دون تحقيق قيام المجتمع على الحب) وأعملت فكرى فى البحث وراء السر إلى أن تأكدت أن الثقة المفقودة هى العلة الرئيسية .

ولكن كيف نعيد الثقة إلى النفوس وفى المجتمع ما فيه من ألوان الزور والحقد والحذر ؟

وبذلك خرجت من تيه إلى تيه فلم تكن الإجابة على السؤال الثانى بأقل عسراً من الإجابة على السؤال الأول .

واعتصمت بالصبر وتركت حل المشكل للزمن والتجربة والدراسة وكانت كل ثقافتى فى الكتب وملاحظاتى فى المجتمع وخواطرى فى النفس طوال هذه المدة التى كانت كل شبابى المدخر تدور حول هذا المحور إلى أن وفقت إلى فكرة الجزاء الذاتى فأيقنت أنى عثرت على الجواب .

عند ذلك أخذت الأمر مأخذ الجد وعبأت كل قواى لإتمام هذه الرسالة وأضنيت نفسى فى البحث وراء هذه المجالات الثلاثة الكتاب والمجتمع والنفس – إلى أن تأكدت بصواب هذه المعادلة الجزاء الذاتى + الحق من طريق الإقناع = الثقة وأنى بهذا قد عرفت الطريق الصحيح إلى الحب .

ولا تسل عن سعادتى حينما تبين لى أنى عثرت على الجواب .

ولم يكن ذلك كل شىء . . .

فقد كان القدر يعد لى مفاجأة أخرى على أعظم جانب من الأهمية لم أكن أتوقعها ولم يكن يدور فى خيالى البحث عنها . . . مشكلة معقدة أشد التعقيد . . حيرت جبابرة العقول وأذهان الفلاسفة منذ فجر التاريخ حتى اليوم . .

إنها مشكلة الحرية . . .

إذ ثبت لى من خلال مراجعاتى الطويلة للموضوع وتقليب الأمر على جميع وجوهه للتأكد من سلامته أن :

الجزاء الذاتى + الحق من طريق الإقناع + الثقة + الحب = الحرية .

وأذهلتنى المفاجأة . . .

وكان هذا فوق خيالى . . . بل فوق احتمالى وشعرت أنى أخرج من ضيق الواقع الذى عشنا فيه إلى عالم طلق رحيب غير مطروق وأننى بهذا أكون قد ذللت مشاكل الثالوث المترابط جميعها مشكلة الأخلاق . . . مشكلة الاجتماع . . . مشكلة السياسة . . إذ أن هذه القوى تتعاون جميعها كل فى ميدانه للبحث عن هذه الحرية . حرية الفرد فى تحقيق ذاته .

ولأول مرة فى حياتى أحس بضخامة المسئولية إزاء هذا الموضوع : بل لقد طاف بنفسى طائف من الفزع والرهبة والحيرة . . ماذا يكون موقفى وأنا أشرف على هذا العالم المجهول ؟ . حتى إنه دار بخاطرى أن أطوى هذا السر بنفسى لا أطلع أحداً عليه فقد يترتب على الإفصاح عنه عكس ما كنت أتوقع للبشرية من السعادة والهناء .

فماذا ندرى بعد أن تختفى المشاكل التى صاحبت الإنسان فى تاريخه كله وألفها وألفته .

ماذا ندرى لو انتهت هكذا فجأة أن يصاب بالذهول أو يعتريه الدوار والارتباك .

إن الإنسان لأول مرة فى تاريخه . بعد تحقيق هذه القيم سيقف أمام ذاته وجهاً لوجه . إن صح هذا التعبير . سيشرف

على عالم أوسع من هذا العالم وأعجب . . . عالم النفس التى شغل عن تفهم أسرارها فى خلال صراعه الطويل على مدى الأزمان من أجل القوت أو من أجل الحرية .

لقد كشف الإنسان فى الأرض كثيراً من الأسرار المادية المحيطة به واخترق أجواز الفضاء وغاص فى أعماق المحيطات فراعه ما فى الكون من غرائب وعجائب وقوانين أذهلته حتى ظن أن المادة ولا شىء وراءها وأن العلم الطبيعى سيحل المشكل كله . وأن الاقتصاد هو المحور الذى تدور حوله القيم والنشاط العام . أما اليوم فسيتجه وجهة أخرى تناقض الوجهة الأولى وتستثمرها لمصلحتها وجهة النفس وما فيها من كنوز وآيات تزرى بكل ما توصل إليه من كنوز العلم والمعرفة المادية .

وما أن وصلت إلى هذا القدر من التفكير والمراجعة حتى تجلت فى وعيى هذه الآية الكريمة وكأنى أراها لأول مرة :

«وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

* * *

وقد يسأل سائل : إن تحقيق الذات ممكن على أى وضع وفى ظل أى نظام وإنك لتنظر إلى المجتمع اليوم فترى كل فرد فيه له ذات متميزة وطابع خاص وسلوك منفرد به ألا يدل هذا على أن تحقيق الذات ممكن على وجه من الوجوه ؟ . وأجيب أن هذه هى النظرة السطحية العابرة .

والأصح أن نقول إن الفرد فى هذا الوضع يزيف ذاته

ولا يحققها . فكل واحد منا يعيش بشخصيتين متناقضتين يبدى للناس الصورة المزيفة ويخفى الصورة الحقيقية .

فالمجتمع فى جملته أشبه بالحفل التنكرى الذى يلبس كل من فيه قناعاً يخفى معالم شخصيته ولكن ما أبعد الفرق بين قناع الحفل وقناع الحياة . لأن قناع الحفل تستطيع أن تزيله بيدك لتعرف من هو الشخص الذى يختفى خلفه أما قناع الحياة . فيكلفك تجربة ضخمة غالية تستلب مالك أو تهدد كيانك أو تدمر حياتك فنحن نعيش فى ظل مثل مقلوبة صيغت فضائلها فى قالب الرذائل ورذائلها فى قالب الفضائل .

فنسمى النفاق براعة والصفاقة شجاعة . والتسامح عجزاً والترفع ضعفاً والإخلاص غباء وهكذا . . . ولا يستطيع الإنسان أن ينعزل انعزالا تاما عن مجتمعه إلا إذا قضى حياته فى دير أو على قمة جبل ولا بد أن يتكيف مع الوضع السائد بقدر مناسب على أى حال وقاعدة التكيف تفرض على الفرد أن يختبئ وراء قناع .

ومن الغريب أن الرجل النبيل المتسامح مضطر لكى يعيش أن يضع قناعاً من الغطرسة والتكبر والعنف حتى لا يطمع فيه الناس ويتهمونه بالجبن حسب مثلهم المقلوبة . إذا أبدى شخصيته على حقيقتها . هذا وتجد المجرم الأصيل اللئيم الطبع يضع على وجهه قناعاً من البراءة والتسامح والنبل كى يستطيع اغتيال فريسته فى الظلام ، وكل يوم نلمس أكثر من شاهد حى على ما نقول .

وحينما يريد إنسان فاضل أن يمشي فى الحياة بغير قناع ويظهر نفسه على حقيقتها ويبرز ما عنده من الشمائل نجد المجتمع بدافع لاشعورى يحذره ويتخوف منه ويكون حريصا فى علاقته به ومعاملته معه لأن كل فرد يحس فى قرارة أعماقه أنه يعيش فى مجتمع كل واحد فيه يحمل القناع .

وقد يدرك مجرم أصيل صدق طويته ونقاء ضميره فيقذف من خلفه بإشاعة دنيئة تلون كل أعماله باللون الإجرامى فيصبح هدف سخرية الجميع واستهزائهم وكلما أمعن فى إبراز فضائله بالغ الناس فى التنقيص والازدراء حتى تطويه دوامة الإشاعة من جميع نواحيه وتبتلعه فى جوفها مشيعاً باللعنات على حين يقف المجرم الحقيقى وسط الجميع شامخ الرأس يفرك كفيه سروراً ويبتسم فى أعماقه ويتظاهر بالغيرة على الفضائل التى يدنسها كل يوم فى غفلة عن الجميع .

* * *

وقد يظهر فى مجتمع كهذا طائفة من الأدباء والمفكرين على جانب من الامتياز فلا نقول بهذا إنهم حققوا ذاتهم ولكنهم حققوا جانباً من جوانب ذاتهم هو الجانب الفكرى أو الفنى على حين تبقى حياتهم فى مجموعها من التآلف الإنسانى فى عزلة وانطواء .

وحتى إنتاجهم لا يكون هدفه تحقيق الذات بقدر ما يكون لأكل العيش والامتياز الشخصى والاستعلاء فلا يكون الدافع

إلى إنتاجهم هو الكشف عن الحقيقة والبحث عن الجمال أيًّا كان مصدره. وإنما سيكون الوصول إلى المركز الفكرى أو الفنى احتكاراً وامتلاكاً يذبون غيرهم عنه ويصدونهم بكل قواهم مهما يكن نصيب هذا الغير من العبقرية والنبوغ . ولا يكون بينهم التعاون الكامل الذى يجب أن يكون شعار من ينشد الحق فى كل مجالاته وإنما نرى بينهم من التنافس والتطاحن ما بين أبناء الحرفة الواحدة فى أى طبقة من الطبقات .

وقد ينشأ فى أمة من الأمم أبطال حقيقيون فى كل ميدان من ميادين البطولة وعظماء فى كل مجلى من مجالى العظمة وقد يعيشون فى حياتهم على أحدث ما وصل إليه التقدم العلمى ولكننا مع ذلك لا نطلق على هذه الأمة كلمة راقية أو متحضرة إلا تجوزاً . لأن آية الرقى الحقيقى بين أمة وأمة فى رأينا لا تتجلى إلا فى المشاركة الوجدانية بين أفرادها .

نحن والعالم

إن من يراجع ما مضى من الصفحات حتى الآن فلا شك أنه سيعرف مقدماً موقفنا من العالم . فنحن الذين نقدس الإنسان إنما نقصد الجنس من حيث هو بلا قيد ولا حد .

ليس هناك حدود جغرافية تحول بين فيض الحب للإنسان فى كل وطن من أوطانه ولا يمتاز عندنا أبيض من أسود ولا شرقى من غربى إلا بمقدار ما ركب فيه من مزايا ومواهب . وحب لبنى الإنسان والعمل على خيرهم جهد المستطاع .

وهذه القيم التى ندعو إليها فى مجتمعنا الخاص وهذه المشكلات التى نريد أن ننحيها عن طريق مواطنينا ليعيشوا أحراراً كرماء وليمارسوا الحياة الفاضلة السعيدة جهد الطاقة إنما نريد أن نصدرها بعد نجاح التجربة إلى الخارج . لتتم الروابط الطبيعية بين الإنسان . وأخيه الإنسان التى فصمتها الظروف الصناعية من وطن ولغة ولون وغير ذلك من أسباب الخلاف .

ستكون الأرض كلها وطناً واحداً وسيشعر الإنسان الذى فى المشرق أنه أخ وحبيب للذى فى المغرب وستكون الثروة الحقيقية لكل إنسان فى هذا العالم بمقدار ما يتبادله مع الجميع من حب وتقدير واحترام ونحن بذلك نسير مع الهدف الطبيعى وفق الإرادة الإلهية وخطوات التاريخ .

فالإنسان قد تحول من العشيرة إلى القبيلة إلى مجموعة قبائل متجاورة ثم إلى أمة ثم اتحدت بعض الأمم المتجاورة فى أمة واحدة وبقى الشوط الأخير وهو أن يتحد العالم كله فى وطن واحد .

وقد تيسر له ذلك من الوجهة المادية كسهولة الاتصال التليفونى واللاسلكى والاتصال الشخصى بوسائل المواصلات السريعة التى تفوق سرعة الصوت وبقى أن يتحد من الناحية الروحية بالألفة التامة بين أفراده مع اختلاف أوطانهم وعقائدهم.

ولقد نادى بهذا كثير من المصلحين من قبل ولكنهم لم يزيلوا العقبات من الطريق ولم يضعوا لها الحل العملى الصحيح .

أما إذا زالت العقبات ووجد الإنسان الحل العملى فلا يمكن أن يتراجع عن تحقيق حلمه الأكبر وهو أن تشمله جنسية الإنسانية وحدها . أشرف وأسمى جنسية فى الوجود .

فالرجل الأمريكى الذى ذهب إلى قاعة هيئة الأمم يوم أن كانت منعقدة فى باريس وأقام فيها وادعى أنه مواطن عالمى وأذاع من هذا المكان أنه ينادى بوحدة العالم . . لم يكن يستحق السخرية أو اتهامه بالجنون . . فقد أرسل إليه الكثيرون من الحالمين والمخلصين فى أنحاء العالم برقيات ورسائل تأييد .

كل ما فيه أنه حالم مخلص ضل الطريق إلى تحقيق حلمه . . والطريق الصحيح أن يتبنى الدعوة إلى توحيد العالم مجتمع لا فرد — مجتمع يقوم على الحب ويتمسك أفراده بشعائره

ويمارسونه فيما بينهم ممارسة عملية .

هذا المجتمع وحده هو القادر على تحقيق وحدة العالم .

ومصر . . يمكنها أن تقوم بهذا الدور الفريد لتتوج به تاريخها كله فمصر بشهادة التاريخ أرست أول حجر فى أساس الحضارة البشرية وعلى أرضها الخصبة أقيم أول مجتمع متحضر وعنها أخذ العالم الأصول الأولى لكثير من العلوم والفنون .

فمصر التى أنشأت الحضارة فى التاريخ القديم يجب أن تعمل الآن على أن تنقذها من الدمار الأكيد إن لم يتحد العالم الآن على الحب عن طريق الحكومات التى تعتنق هذا المبدأ أو التنظيمات الأهلية على وجه من الوجوه . . . هذه هى رسالة مصر فى هذه الفترة الحرجة من التاريخ . وإن التجارب التى اعتصرتها والآلام العديدة التى عانتها وصقلت روحها لكفيلة أن تجعلها جديرة بحمل الرسالة العالمية عن طريق الروح بعد أن تمهدت السبيل أمامها عن طريق العلوم .

وحتى نكون جديرين بهذه الرسالة لا بد أن نمارس هذه القيم أولا ممارسة طبيعية . من فيض إيماننا بأنفسنا وبالطريق الذى اخترناه وبذلك سيجد العالم ألا مفر له من الاقتداء بنا لينقذ المدنية وينقذ نفسه أولا من الخطر الماحق الذى يتهدده وأصبح ماثلا للعيان .

فأعصاب الطرفين اللذين يملكان القنابل الذرية والهيدروجينية صارت مشدودة كالوتر ، وقد صور كاتب مدى الخطر الذى

يتهدد العالم لو أن ضابطاً مجنداً واحداً من الطرفين ألقى قنبلة مما فى حوزته على المعسكر الآخر فيرد هذا الضربة بأشد منها . وتكون نتيجة ذلك أن يدمّر العالم فى أيام إن لم يكن فى ساعات .

ولكننا نؤمن أن الله أبرّ بخليقته من أن يسلط عليها ذلك المجنون وأنه سيهديهم إلى الطريق المستقيم طريق الحب والتعاون والتآلف لما فيه خير الجميع وسعادة الجميع .

فالبشرية الآن على استعداد أن تلبى هذه الدعوة لأول هاتف تعتقد فيه الصدق والإخلاص .

إن عصر الإنسان الذهبى لم يبدأ بعد، لا يزال طى الغيب، إنه هناك فى المستقبل . .

إنه ليس عصر العلم ولا تحطيم الذرة ولا القمر الصناعى . . لا . . ليس هذا عصره الذهبى كما يتصوره بعضنا ولن يكون عن طريق التقدم العلمى ولو كان ما وصلنا إليه مضروباً فى آلاف المرات .

ولكنه سيكون عصر الروح . . . عصر الحب . . . عصر القيم العليا . . . هذا هو العصر المرتجى وغيره لن يكون . . .

« و بعد »

حينما اطمأنت نفسى بعد المراجعات الطويلة إلى هذه القيم على الهيئة المترابطة السابقة كان على أن أختار القالب الذى أعرضها فيه .

وكان أمامى واحد من اثنين . إما أن أضعها فى قالب فلسفى معقد . بكل أصولها وتفريعاتها والدراسات التاريخية المقارنة للمذاهب السابقة ثم بعد ذلك أبسطها شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى المستوى العادى وإما أن أضعها فى صورة مبسطة مفهومة لكل مستوى ثم نمضى بها صاعدين درجة بعد أخرى إلى التفريع والتشقيق .

وكان لا بد أن أختار الطريق الثانى لأنه هو الطريق الطبيعى .

فما نريده فى هذه المرحلة عقيدة تمتزج بوجدان الجماعة وتشكل سلوكها أكثر مما هو فلسفة ترضى عقول خاصة من الأفراد .

فليست هذه فكرة للدراسة وكفى . . . وإنما هى قبل كل شىء دعوة إلى عمل وتطبيق .

وهى بهذه الصورة تبدو واضحة المعالم متقاربة القواعد . . وهى بهذا التركيز أقوى أثراً وأشد نفاذاً وأجمع لشتات الرأى من

تصدع التشقيق وتميع التفريع .

وكانت مهمتى فى الأيام الأخيرة محاولة التبسيط والتركيز فمهمة الرائد ليست فى الوصول إلى القمة وإنما فى تعبيد الطريق إليها لكى يسهل وصول الآخرين .

وشيء آخر وهو أن التوسع فى الأصول الأولى قد يجعلها تنحرف عن اتجاهها الطبيعى فى نهاية الأمر لأن فرق ملليمتر فى نقطة الانطلاق عن الهدف يزداد اتساعاً كلما ازداد بعداً .

وشيء ثالث هو أن المبادئ السائدة اليوم لا نكتشف أنها منحرفة أو هدامة إلا فى الزوايا المظلمة التى تتلفع برداء الفلسفة المعقدة التى يصعب فهمها على الخاصة فضلا عن الأوساط من الناس .

لهذا كان رائدى فى هذا العرض . الدقة والوضوح بقدر الإمكان حتى لا يتيه القارئ أو يتبلبل خاطره بين التفريعات المعقدة التى تصلح للدرس دون التطبيق .

* * *

هل نحن فى حاجة إلى مذهب جديد . . .

إن من يتتبع تاريخ الإنسان خطوة خطوة منذ فجر التاريخ حتى اليوم سيروعه بلا شك هذا الحشد الهائل من النظم والمذاهب والقوانين على اختلافها .

وسيرى بعضنا أن فى تطور القوانين والنظم مع سير الزمن علامة سارة . وإنها لكذلك على وجه واحد .. إنها تعتبر الطريق

الصحيح لتقدم الإنسان والعلامات الدالة على الأشواط التى قطعها من عمره المديد .

أما أن نعتبر القوانين والنظم قوة دافعة على التقدم والارتقاء فهذا ما نشك فيه أو بالأحرى يجب أن يكون الآن محل بحث وتمحيص . . .

ولماذا الآن . . . ؟ لأننا اليوم والبشرية عامة على عتبة دور جديد من أدوار تقدمها وارتقائها ويتلفت المشفقون على المصير حولهم فى لهفة باحثين عن نظام جديد يلائم الدور الجديد الذى يوشك أن يبزغ ونحن نخشى أن يكون هذا منتهى أمل الباحثين والمتلهفين .

إننا نستطيع أن نقول ونحن نجزم ونؤكد إن الدور الذى سنقبل عليه يختلف اختلافاً تاما عن كل الأدوار التى سبقت فى تاريخ الإنسان . وهو كذلك يحتاج دعوة جديدة . . . جديدة فى كل شىء عما سلف من الدعوات.

إنه لا يصلح له التقليد ولا التطوير ولا الترقيع لأى نظام سابق وإنما يحتاج إلى إلهام ويقين وجرأة ماضية نافذة منقطعة النظير . إنه يحتاج إلى رجل أوتى الصفاء النفسى والاتصال بسر الحياة حتى لكأنه يفكر بتفكيرها ويحس بإحساسها . أما هؤلاء الذين يودون الخلاص على يد مذهب جديد فإنا نصارحهم أنهم يؤملون فيما لا طائل تحته ولا يغنى عنهم شيئاً . فلنوفر الجهد فى هذا السبيل ولنتجه إلى ما يفيد .

إلام نتجه إذاً . . ؟

إلى الإنسان ذاته . . . نعم إلى الإنسان لا سواه . . .

فمهمتنا اليوم ليست فى استحداث نظام جديد وإنما فى خلق نظرة الإنسان الجديدة للقوانين والنظم والحياة بكل ضروبها وألوانها .

وعن طريق الحب نجد الإنسان ونجد العلاج أيضا . . .

ويغنينا لتوضيح رأينا فى هذا المقام بعض فقرات من رسالة بعثت بها منذ ثلاثة أعوام إلى الأديب السودانى الأستاذ مصطفى حامد الأمين حين طلب منى أن أبعث إليه برأيى فى كتابه « البوذية » جاء فيها :

« . . . وخلاصة ما اهتديت إليه بفطرتى ودراساتى أن الحب هو القانون الأعظم الذى يجب أن ينتظم سير المجتمع والبشرية كافة وأنه وحده هو المصدر الأسمى والأوحد الذى تتفرع منه القيم والتعاليم والعقائد . . . بل القوانين ذاتها يجب أن تكون مقيدة ومشدودة إلى هذا المصدر . ولست الآن بسبيل شرح فكرتى لك بإسهاب فذلك مجاله رسالة أخرى أو رسالات أخر .

إن شخصية كبوذا يجب أن تكون الشغل الشاغل لكثير من الباحثين والمفكرين خاصة فى هذه الأيام يجب أن تسلط عليها الأضواء الكشافة من كل جانب لا لما فيها من الجرأة على نقض القديم والشجاعة فى مواجهته فحسب بل لما فيها من التعاليم السامية المبتكرة المتعشقة للحرية ووضع الإنسان فى مكانه الطبيعى

كسيد لحياته سيادة مطلقة لا يحدها إلا شعوره بواجبه وبإنسانيته التي يجب أن ترتفع عن الصغائر . . .

لست أدري إلى أى ناحية من نواحى العظمة المتعددة فى بوذا أود أن أشير . . . ولكن لو لم يقل إلا هذه الكلمة « إن البوذى ليس عبداً لبوذا ولا لأى كتاب ولا يضحى بحريته الفكرية بصير ورته تلميذاً لبوذا ... لو لم يقل إلا هذه الكلمة لأحلته المنزلة العليا من التقدير والإكبار . . . .

إن هذا الركام الهائل من المواريث والمعتقدات الخرافية لفى حاجة إلى أكثر من بوذا واحد . . . فقد تحجرت الفضائل والمثل حتى صارت قيوداً ثم تراكمت وانتشرت حتى أصبحت متاهات ومجاهل ضحيتها شىء واحد هو « الفرد المسكين » .

لقد ضاع الإنسان تحت هذا الركام المتراكم من المواريث . وتتلخص مهمة المصلح اليوم فى البحث عن هذا الإنسان الضائع وفى الطريق إلى العثور عليه يجب أن نضحى بكل شىء وأن يتخطى كل الحدود والسدود » . .

* * *

نعم . . . نحن اليوم لسنا فى حاجة إلى أوامر جديدة ونواه جديدة وإنما حاجتنا إلى التفاهم العميق والرغبة الصادقة المخلصة والحب والإخاء من الجميع حكاماً ومحكومين .

بقى الآن السؤال الأخير :

كيف السبيل إلى تطبيق هذه القيم تطبيقاً عمليا ؟

والجواب أن تؤلف منذ الآن رابطة يطلق عليها (رابطة الجزاء الذاتى) ينتسب إليها المؤمنون بهذه القيم ويقومون بالدعوة لها بالقول والعمل وبذلك تقوم بعملية امتصاص لبقية أفراد المجتمع.

وحينما تصير قيماً اجتماعية يؤمن بها المجتمع وينفذها أو قطاع كبير منه تبدأ هذه الرابطة فتبشر بها على نحو عالمى وهو واجب لا يقل لزوماً عن التبشير بها فى مجتمعنا الخاص .

فكما أن الإنسان الفاضل لا يستطيع أن يمارس فضائله فى مجتمع منحل بل تظل فى حالة كمون يشقى بها إذ لا يستطيع التنفيس عنها فهكذا مجتمعنا بالنسبة للعالم . لا يهنأ بهذه القيم أو يسعد بها ما دام العالم يعيش فى ظل المبادئ الحالية . لأن العلم الحديث ربط الأرض كلها برباط مادى يجعل من العسير على أمة ألا تتأثر بما يجرى خارج حدودها .

ونحن نؤمن أن العالم الآن على استعداد أن يتقبل هذه الدعوى ويباركها بإخلاص عظيم .

وهو أمام تجربة فاصلة . فدعوة الحب والإخاء والتعاطف الإنسانى فى ناحية . . .

وفى ناحية أخرى ما استحدثه العلم من الأدوات الفتاكة المدمرة التى لو أطلقت من مكامنها فلن تذر على الأرض دياراً .

وسنرى . . هل بلغ الإنسان رشده أم لا يزال فى دور الطفولة لا يستطيع أن يفرق بين الجمر والتمر . . . وهل يجذبه ظلام المادة أم صفاء الروح ؟ .

الجواب عند علام الغيوب .

المحور الحق

الإيمان

هذا هو المحور

من المؤلم المؤسف أن نجد المشكلة الاقتصادية تحتل مركز الصدارة من مشاكلنا المحلية والعالمية على السواء .

بل نرى بعض الدول قد أدمجت مشاكلها السياسية والاجتماعية والأخلاقية فى مشكلة واحدة هى مشكلة الاقتصاد وطبعت كل تصرفاتها بطابع اقتصادى .

ولذلك علينا الآن قبل أن ننهى هذا البحث أن نتعرض لوجهة النظر هذه وأن نلقى الضوء عليها ونضعها فى مكانها الحق وفاقاً لما قلته فى المقدمة من أن العالم لم يواجه محنة فى تاريخه أشد مما يواجهها اليوم من أثر الفلسفات المادية التى أصبحت تروج وتزحف وتحتل كل يوم موقعاً جديداً .

ولا أود — وإن كنت أمام بحث نظرى — أن أخرج إلى الشروح والتفاصيل والتعرض لوجهات النظر الأخرى بالرد. فليس المقصود عرض وجهات النظر والرد عليها — فهذا لا يتسع له المقام .

وإنما هى عرض وجهة نظرنا نحن . . من خلال تعرضنا لهذه الفلسفات .

وقد طلب منى بعض معارفى ألا أتعرض لمسألة الإيمان هنا ما دمت قد أردت أن يكون منهجاً عمليا عالميا للجميع بعيداً عن

اللجاجات والخلافات التي تجعل الكثير ممن يسيئون الظن بالأديان لا يقبلون عليه أو يقرأونه وفي نفوسهم بعض الريب والحذر .

ولكني عزمت على أن أنشر رأيي كاملا ومنهجي واضحاً حتى لا أتهم بعد ذلك لو أبديت بقية رأيي أنني أقصد الملق والنفاق .

* * *

وعلى أي حال فهذا الفصل دراسي نظري يعتبر مستقلا عن المنهج العملي الذي وضحته فيما سبق . . ولا حرج على من يخالفني فيه أن نتفق معاً على تنفيذ المنهج العملي .

أما مسألة العقيدة الداخلية فلا سلطان لأحد عليها ولا تقطع ما بيننا وبين الجميع من أواصر الود والتعاون .

ورأيي الذي اهتديت إليه بعد شك طويل وتأمل أطول أن الإيمان بالله يجب أن يكون محور حياتنا الجديدة بعد تطبيق كل القيم التي قدمناها ... فالإيمان بالله فوق أنه فطرة الإنسانية عريقة في الجنس البشري وفي أعماق النفس الإنسانية إلا أنه ضرورة عقلية كذلك . وسبيلنا إلى إثبات هذا هو المنطق العقلي وحده فلا ضغط ولا إكراه وسنحقق بهذا أول تجربة لمبدأ (الحق من طريق الإقناع) في هذا الموضوع الضخم العميق .

وقبل أن نبدأ سنجد أمامنا هذا السؤال . . .

* * *

كيف تقطع أن الإيمان بالله فطرة إنسانية وضرورة عقلية مع ما نراه من انصراف الكثيرين عن الدين ومن بينهم فلاسفة كبار وعقول نشهد لها بالدقة والعمق والحصافة ؟ وبم نعلل عزوف نفر كبير من أصحاب الهمم العالية والنفوس الكبيرة . بل الأخلاق المستقلة عن الأديان ؟ إن العالم لم يصل إلى درجة من العلم والمعرفة والثقافة أرفع مما هو الآن ومع ذلك لم تواجه الأديان محنة وهجوماً أشد مما تواجهه هذه الأيام .

وجوابى أننى سأفصل ما أجملته فى المقدمة . من أن الفلسفة المادية ترتكز على دعامتين هامتين هما : الإيمان المغرور بالعلم . والاستغلال بنوعيه المادى والمعنوى . أما الإيمان المغرور بالعلم فهو قسمان قسم يبحث فى نشأة الأديان ويعللها وقسم زلزل إيمانه كشوف العلم إلى درجة تقارب الخيال . القسم الأول يتحدث بلا سند علمى وإنما هو استنتاج سماه علما ولو كان علماً حقيقيا لهحصانة قوانين العلملما اختلف علماءالاجتماع مع علماء النفسوعلماء التشريح مع علماء التاريخ . فمنهم من يروى لك علمه فى نشأة الدين على خوف الإنسان الأول من الكون والعجز عن تفصيل ظواهره والرغبة فى التقرب إليه ومنهم من يصور نشأته بالأحلام التى رآها الإنسان الأول لبعض ذوى قرباه من الأموات فخيل إليه أنهم أحياء فى عالم آخر فأكبر شأنهم ومجدهم وانتقل بعد هذا إلى تأليههم بل تطرف بعضهم إلى حد القول : إن الإنسان لما ابتكر اللغة وأطلق أسماءها على الظواهر الكونية

الكبرى كالشمس والقمر ورآها تتحرك شرقاً وغرباً وجعل يقول أشرقت الشمس وغرب القمر اعتقد أن لها روحاً تحركها إلى آخر هذا التخبط الذى لا يؤيده دليل قوى . . . دع عنك ما يقوله علماء النفس من شعور الإنسان بالضعف أمام قوى الكون المجهولة ولما كان يحتمى بأبيه وهو صغير فإنه لما يكبر يجد هذه القوى لا تزال مجهولة ويحار فى تفسيرها وهو كبير أيضاً فيحس بحاجته إلى الحماية وإلى قوة ينشدها كقوة أبيه فى المخاوف أو عندما تتعقد أمامه سبل الحياة فينشأ عنده وهم بإله قادر يكون له بمثابة الأب إلا أنه لا يدرى أن هذا وهم أو هو لا يريد أن يكشف هذا الوهم حتى لا تضطرب حياته .

وكذلك نظرية الطوطم وهو شعار القبيلة البدائية التى يرسمها أفرادها بالوشم على أجسادهم لاعتقادهم أن هذا يجلب لهم الحظ ثم بعد ذلك يرفعونه شيئاً فشيئاً على مدى الأجيال إلى مرتبة الألوهية .

وغير ذلك كثير من هذه الاستنتاجات التى تقوم على الفروض لا غير . ولا تتفق فيما بينها على تعليل واحد ولسنا ننفى أن كل هذه الفروض حدثت أو يمكن أن تحدث وإنما تعليلنا لها هو أن التدين فطرة عريقة فى الجنس البشرى وفى أعماق النفس الإنسانية كما بينا . ولم تكن هذه الاستجابات الساذجة إلا تمهيداً لنشوء الاستعدادات التامة لإدراك معنى الدين الصحيح .

* * *

وأما القسم الثانى فراح يتيه بما وصلت إليه الإنسانية من كشوف ومخترعات ومن انتصار على حل ألغاز الطبيعة التى كانت سرا مغلقاً على الأقدمين فأعرض عن كل ما لا يدخل تحت الميكروسكوب أو المعمل أو المعادلات التى اكتشفها ونظمها العلم الحديث .

ونحن بدورنا نسأل ماذا صنع الإنسان بعد هذا الرقى العلمى ما مبلغ جهده ما نهاية ابتكاراته إن مبلغ جهده فى هذا السبيل أنه اكتشف أنظمة موجودة ولم يخلقها . وكلما ازداد الإنسان علماً وكشفاً لهذه القوانين وجد ما هو أدق وأعجب مما وصل إليه . فالكهربا لم يخلقها أديسون وتابعوه وإنما كل جهدهم أنهم اكتشفوا قوانينها أما هى فموجودة فى هذا الرحاب قبل ملايين السنين وقس على ذلك كل ما وصل إليه الإنسان وما سيصل إليه من كشوف .

فلا يتبجح الإنسان بما وصل إليه من علم ويدعى أنه اكتشف قانون الحياة وسر الوجود فمبلغ علمه مما لم يعلم كقطرة من بحر أو ذرة من فضاء وهذا بشهادة العلم نفسه .

والحقائق العلمية والتاريخية لا تعطينا الدليل القاطع على أنها تسير بذاتها ولذاتها ولا يستطيع أحد أن يجزم بذلك .

فإذا كانت كل عظمة الإنسان وعبقريته لا تتعدى دائرة اكتشاف ما هو موجود بل شيئاً ضئيلا جدا مما هو موجود فيدعى بغروره أنه عظيم أو إله وأنه سيصل إلى كشف كل شىء ولا عيب

أنه الآن فى الطريق . ونحن لسنا ممن ينكر على الإنسان عظمته بل لعل أحداً لم يشرف عليها فيراها بعين البصيرة حافلة بآيات الإعجاز مليئة بالأسرار كما نراها . وليست هذه الدعوى التى فصلناها سابقا إلا للفت نظره إلى تلك الكنوز الهائلة بداخل النفس التى شغل عنها بالكنوز الخارجية . ولكنها ليست فى موقف المقارنة بين عظمته وعظمة الله أو فى موقف المقابلة بين عظمة الخالق وعظمة المخلوق .

لنفرض أنه وصل إلى كل شىء واكتشف كل الأسرار الموجودة فسيبقى شىء وراء تفوقه ووراء نبوغه وهو خلق ما لم يوجد .. . وهذا ما لا يستطيع . . .
(إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) .

ومع ذلك فنحن نسأل . . .
هل يستطيع الإنسان أن يدبر الكون بطريقة أعظم مما هو عليه الآن . . هل يمكن أن يبتكر نظاماً جديداً لدورة الليل والنهار وشروق الشمس وغروبها وتعديل محور الأرض أو موقعها على هيئة أكثر دقة مما هى الآن أو وضعها فى مكان أنسب مما هى فيه بالنسبة للمجموعة الشمسية ؟ . . .
وما لنا نبحث فى هذا كله . . لنعد إلى الإنسان نفسه . من سواه على هذه الصورة المعجزة جسداً وروحاً فالإنسان

أعجب ما صنع الله وأبدع مخلوقاته، من ركب فيه هذا العقل الطلعة الذى لا يستقر ولا يهدأ، ولا يكف عن الشغف بكل جديد ؟ من ركب فيه هذه العواطف السامية . . من أودع فيه هذه الروح ؟ من زوده بإنسانيته المتكاملة التى أحالت الوجود إلى كل هذا الجمال والنظام ؟ . هذا الإنسان بكل عظمته وإعجازه هل جاء أيضاً عفو الصدفة أو وفق قوانين لا منظم لها ... فالذين تشيعوا للإنسان حتى ألهوه .. هل يرضيهم أن يكون وليد صدفة أو نتاج مادة . فمن يؤلهون المادة عن علم أو عن غير علم أن ينظروا إلى الإنسان نفسه لا أن يتخبطوا فى التفاصيل من معميات التاريخ التى ليس لها مستند علمى صحيح والذين لا يؤمنون إلا بما يرونه ويحسونه أو من خلال المعادلات التى تجرى فى معاملهم هم أولى الناس بالتبشير بوجود الله لأنهم أكثر اطلاعاً على أسرار الكون . فالعلم لا ينقض الإيمان بل يسانده . إن لم يكن أقوى سند له . وكثير من العلماء الأفذاذ كان العلم الذى يمارسونه من أقوى الأسباب التى هدتهم إلى الله والإيمان به كأقوى ما يكون الإيمان .

فمسألة إثبات وجود الله قررها العلم ببحوثه وهو يتخطى طوراً من بعد طور فيجد نظاماً إلى نظام أعجب وأكثر دقة وإحكاماً .

وقررته الملاحظة الدقيقة الواعية لكل ما فى الكون من أسرار معجزة وعلى رأسها الإنسان . ولا يستساغ أن يكون هذا

النظام الذى يشمل كل ما فى الكون من ذرات وأفلاك وأجرام وينتظم كل ما فى الوجود على نسق واحد وإنما جاء من وحى الصدفة أو من غير تدبير من إله حكيم قدير .

* * *

أما الاستغلال بنوعيه : المادى ، والمعنوى وهو يتلخص فى سلب القوت والفرص المتكافئة للرزق أو سلب الحرية باسم الأعذار الكثيرة التى يطلقها الطغاة كالحرص على النظام أو مصلحة الدولة العليا وغيرها أو هو بمعنى أوضح فساد النظام الاقتصادى أو فساد النظام السياسى . فأحد الأسباب الهامة التى ترتكز عليها الفلسفة المادية لتبرر قيامها . . .

* * *

ذلك أن المتدين يشعر عادة بصلة نفسية تربطه بالله القوى القادر وحينما يشتد عليه الظلم ويطول مداه ويتضرع إلى الله أن ينقذه ومع ذلك لا ينزاح عنه ظلم الظالمين . يبدأ عقله يتشكك فى وجود الله لأن الله لا يرضى لعباده الظلم . لاعتقاده أنه ما دام متمسكاً بالله فإن الله يتولى عنه رد الظلم ويساعد على ذلك أن يبدأ الصراع بين الظالم والمظلوم فيتخلى كلاهما عن الرحمة وما يماثلها من الشمائل الإنسانية كل فى سبيل وجهته . فيكونون بذلك فى درجة هى إلى الحيوانية أقرب . وسيصرفهم الصراع عن إشباع العقل بالثقافة وإشباع الوعى بالتأمل وإشباع العواطف السامية بالتودد فيكون ذلك جميعه عوناً للفلسفة المادية التى

تنادى بخرافة الإيمان بالله .

ولذلك فسيكون هذا المنهج العملى الذى قدمناه لتخليص الإنسان من الاستغلال الاقتصادى والاستبداد السياسى من أهم الدوافع التى تعيد الفرد إلى حظيرة الإيمان بالله ولإشراق نوره عليهم من جديد .

وهنا سبب ثالث نراه لا يقل خطورة عن سابقيه وهو تصرف رجال الدين وسلوكهم فى الحياة وجوابه أن الخلط بين مبادئ الدين نفسه و بين سلوك رجال الدين لا مبرر له ولا ذنب للدين فيه . فالدين قد حض على مكارم الأخلاق ووعد العاملين بها بالجنة . وتوعد المخالفين بالنار فى الدار الباقية . فإذا استهان بعض رجاله بهذه الأوامر والنواهى فلا يتخذ ذلك حجة على الدين نفسه فهم بشر كسائر البشر وكونهم يقولون ما لا يفعلون لا يجعلنا نقلدهم فى أعمالهم ونضرب صفحاً عن التعاليم السامية التى يبشرون بها . كما أن هؤلاء ليسوا أصحاب دعوة وإنما هم محترفون أى أنهم يؤدون عملهم الوعظى وهو وظيفة لا رسالة وقد لفت نظرنا القرآن لأمثال هؤلاء بقوله «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

وهناك شيء آخر وهو أن بعض الناس يظن أن رجل الدين يجب أن يكون كاملا كمالا تاما من جميع نواحيه وأن يكون فاضلا فى كل تصرفاته جميعها . ولكن الحقيقة أن الفضائل أكبر من أن يحيط بها فرد واحد مهما يكن ذلك الفرد من

النبل والسمو ونقاء الفطرة . كما أن الفضائل درجات يعلو بعضها بعضاً فلو اتصف رجل الدين ببعضها وتخلى عن البعض لا ينظر الناس عادة إلى فضائله التى يتحلى بها وإنما يركزون كل أنظارهم على نقائصه أو ما يخيل إليهم أنها نقائص على حين لا تكون هى كذلك . بل قد تكون وسيلة إلى فضيلة أعلى .

وأنا أعترف أن من بين الأسباب الهامة التى جعلتنى قبل ذلك أتشكك فى الدين إنما كان مواقف بعض رجاله نظراً لجمودهم العقلى أو لبعض تصرفاتهم . وحينما حالت القيم الدينية فى نفسى لم أبتعد عن الفضائل الدينية وإنما رسخت فى نفسى كقيم خلقية لا غير . أؤديها كإنسان يحترم إنسانيته حتى ولو لم يترتب عليها الجزاء الأخروى الموعود . وكنت أعتقد أن صلتى بالدين هى صلة الجزاء وحده .

ولذلك لما رأيت أنى لا أستطيع أن أتخلى عن فضائلى حتى ولو لم يكن هناك وازع دينى رأيت أنى قد نفضت يدى من الدين نهائياً إلى أن طاف بذهنى هذا السؤال الخالد : « من خلقنى» ؟ من أودع فىّ هذه القوى المعنوية كالعقل والخلق والعاطفة ؟من نظم الكون هذا التنظيم المحكم؟ ولم يكن جواباً لهذا السؤال الأبدى إلا أن يكون الله القوى المقتدر واجب الوجود الكامل فى كل شىء وليس كمثله شىء هو الذى خلقنى ونظم هذا الكون الهائل حتى وجدتنى أعود ثانية إلى هذا المرفأ الأمين.

* * *

والإيمان بالله يستتبع الإيمان بحياة أخرى بعد الموت . . .
ونستطيع بالبرهان العقلى وحده كذلك أن ندلل عليها على الوجه الآتى :

لو فرض أننا سألنا خلية حية إبان تلاقحها — إن كان لها عقل يسأل — هل فى الإمكان أنك ستكونين بعد شهور جنيناً إنسانياً متكامل الخلقة . لكان الجواب بالدهشة والاستغراب .
ولو سألنا الجنين فى بطن أمه — ولنفرض أن له وعياً يدرك — هل تظن أن هناك عالماً أوسع من هذا العالم الذى توجد فيه ؟
لأجاب مؤكداً : أنه لا يمكن أن يكون هناك عالم أفضل .
ودليلنا على هذا أنه حينما يغادر مقره يستقبل هذا الوجود الرحب بالبكاء .

فهذه العناية الخفية التى حدبت على الخلية الأولى فى الأصلاب والترائب ونمته جنيناً فى بطن أمه من باب أولى أن ترعاه بعد أن يبلغ هذا المستوى العالى من النمو والاهتمام ولذلك فنحن نسير مع المنطق الطبيعى إن آمنا أن بعد هذه الحياة حياة أخرى أبعد فرقاً مما بين الخلية الأولى والجنين فى بطن أمه وأوسع مدى مما بين الجنين والإنسان فى عنفوان رجولته وشبابه . ولا بد أن يكون أكمل من هذا العالم الملىء بالمتاعب والحسرات والآلام .
وقد يقول قائل : إن النبات والحيوان يشاركنا فى النشأة والنمو ولكنه يفنى . . وهنا يجب أن نفرق فى هذا المجال بين الوسائل والغايات . فالنبات والحيوان وسيلة الإنسان لحياته على هذه

الأرض أما الإنسان الذى ركب الله فيه هذه الروح والخلق والعقل فهو غاية فى ذاته لهذه الخصائص الإنسانية وإلا فلأى شيء يكون الإنسان وسيلة ؟ . . فإذا أدركنا أنه لا يمكن أن يكون وسيلة ثم نفينا بعد ذلك أن يكون غاية فإن وجوده سيكون عبثاً . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومع إيماننا الكامل بالله وملائكته وكتبه ورسله والحياة الأخرى إيماناً قائماً على العقل والمنطق إلا أننا نعرض هذا الرأى ولا نفرضه فإكبارنا للعقل جعلنا نضع فى صلب المنهج العملى مبدأ الحق من طريق الإقناع .

فترابط العقل والخلق والإيمان هو الذى يصعد بالإنسان إلى قمة السمو والسعادة بل إن إنسانيته الحقيقية لا تتحدد إلا بترابط هذه القوى الثلاث .

فإيمان وخلق بغير عقل : لا قيمة لهما بل لا يتصوران أصلا . . .

وعقل وإيمان بغير خلق : لا يفيدان المجموع فلا قيمة لهما كذلك .

وخلق وعقل بغير إيمان : لا يسموان بالإنسان إلى المدى المستطاع . .

إذاً فقيمة هذه القوى أن تترابط لتؤدى دورها معاً حتى تحقق الكمال المنشود . والعالم اليوم ينقسم إلى طوائف ثلاث .

١ــ أخلاقيون . يؤمنون بالله وبالأديان . . .

٢ ـ أخلاقيون لا ينتسبون إلى دين . . .

٣ ـ لا أخلاقيون . . سواء منهم من ينتسب إلى دين ومن لا ينتسب إلى دين .

ومقصدنا الآن أن نحقق وحدة العالم على أسس خلقية . . ولذلك فمن واجب الأخلاقيين أصحاب الطائفتين الأوليين أن يتعاونوا معاً لبناء هذا العالم المأمول سواء منهم من آمن بالله أو من لم يؤمن ما دام كلاهما يقدس الغاية الأخلاقية .

ولا يكون سوء ظن الأخلاقيين بالمؤمنين بالذى يشككهم فى جدوى هذا التعاون . فقيمة الأخلاق عند المؤمنين أنها لاتعمل على إسعاد المجتمع فحسب ، ولكنها قبل ذلك تقرب الإنسان إلى الله ، والله مطلع على الضمائر وفى هذا ضمان أكيد ألا نتخلى عنها .

وكذلك لا يكون عدم إيمان الأخلاقيين بالله سبباً فى فصم عرى التعاون عند المؤمنين فإن الأخلاقى الذى يحترم إنسانيته ، ويترفع عن الصغائر والنقائص بدافع داخلى دون انتظار جزاء لا ينقص من قدره فى دائرة النشاط الجماعى أن يؤدى دوره كاملا . وقد يكون فى تحلى المؤمنين بالأخلاق الكريمة وتعاونهم معه ما يجعله يعود إلى منطقة الإيمان ... والله تعالى يقول : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . .

وسيكون أولى ثمرات هذا التعاون أن يضيق الخناق على المنحلين ومن يتبجحون بالإلحاد ليداروا نقائصهم باسم الثقافة أو حرية الفكر . . . أو التقدمية . . .

* * *

وهنا يعترضنا سؤال آخر . . لقد أسهبت فى الحديث عن الإيمان وتركت المشكلة الاقتصادية جانباً . مع أنك افتتحت هذا الفصل بأن المشكلة الاقتصادية هى المشكلة الرئيسية فى عالم اليوم عند الجميع والجواب أنى بعد هذا الذى بينت لا أرى أنها مشكلة بالمرة ... إنى أعتقد أن هذه المشكلة ما كانت لتوجد أصلا إلا لما تخلينا عن القيم المعنوية . .

وهنا يعترضنا بقية السؤال الأول . . .

كيف تقولوا بتحقيق القيم المعنوية قبل أن تحل المشكلة الاقتصادية .. إن هذا كمن يضع العربة أمام الحصان . . فالجائع لا يستطيع أن يتمتع بالإيمان والخلق والعقل إذ الجوع ينفى كل هذا فمن واجب الدولة أن تقف كل جهودها على حل المشكلة الاقتصادية حتى يوفر المستوى المادى المناسب للجميع وبعد ذلك يمكننا أن نتطلع إلى الآفاق المعنوية . أى أن مطالب الجسم أولا ثم مطالب الروح . .

والسؤال وجيه لا شك فى ذلك . وجوابه :

إننا لا نمانع أن تنفق الدولة بعض جهودها لعلاج المشكلة الاقتصادية، ولكن ما نمانع فيه هو أن تستنفد كل جهودها . على أن دعوتنا إلى تطبيق هذه القيم موجهة إلى الجماعة أولا لا إلى الدولة . . . كما أننا لا نطالب هؤلاء الذين شاء لهم الحظ

العاثر أن يوجدوا فى السفح الاقتصادى والعلمى ليشاركوا فى البناء، فهؤلاء لا يملكون ما يشاركون به، ويكفينا منهم الموقف السلبى والنية الطيبة وغيرتهم الظاهرية على الدين والأخلاق، ولكن دعوتنا موجهة بالذات إلى هؤلاء الذين أوتوا بسطة فى العلم والمال أن يقوموا بواجبهم لا أن يقفوا موقف المتفرج بلا مبالاة وقد توفر لهم كل شيء فتقصيرهم خيانة لأنفسهم ولإنسانيتهم ولا يعقل أن نقول لأمثال هؤلاء انتظروا حتى تفرغ الدولة من حل مشاكلها الاقتصادية وبعد ذلك اعملوا على تطبيق المبادئ الخلقية .

فالاشتراكية الاقتصادية ليست حلا لة العقد كما يتصورون، وإنما الاشتراكية الخلقية هى التى يمكن أن تنهض بهذا الدور عن جدارة ويقين . ومفرق الطريق بيننا وبينهم أنهم يعملون بكل قواهم ليصل من هم فوق فى المستوى الاقتصادى إلى تحت . أما نحن فنعمل بكل قوانا ليصل من هم تحت فى المستوى الأخلاقى إلى فوق . . . .

وهم يحاربون النقائص النفسية بإلغاء أسبابها، ونحن نحاربها بالجهاد والمثابرة للتفوق عليها، ونرى أن الحياة لو مضت هكذا بلا جهاد للروح فإن يوماً واحداً يغنى عن ملايين السنين .

وهم يريدون أية حياة مهما تكن هابطة ما دامت فى ظل المساواة . ونحن نريدها حياة سامية عزيزة جديرة بكل ما راح فى سبيلها من جهود الأنبياء والمصلحين، وما ضاع من أرواح

الشهداء والضحايا على مر العصور فى كل مكان .

وما دمت قد أعلنت موقفى صريحاً من الإيمان فسأستشهد بسورة قصيرة من القرآن الكريم هى سورة العصر يقول اللهتعالى: « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » وهنا نجد أن هذه السورة القصيرة قد جمعت كل مقومات الإنسانية الحقيقية فى أبلغ صورة وأوجز عبارة . . .

فالإيمان وهو الفضيلة الإنسانية العليا . . .

والعمل الصالح أى ما مجاله الخلق . . .

والتواصى بالحق أى ما مجاله العقل . .

والتواصى بالصبر فى سبيل خير الجميع وهو هنا يعتبر مرادفاً لكلمة الحب لأنه صبر فى سبيل الجماعة فالصبر نوعان: صبر فردى كالصبر على الطاعة والصبر على المصيبة والصبر على المعصية . وصبر جماعى وهو أن تتحمل الإيذاء فى سبيل الحق والخير للجميع . وهو هنا يفسر بمعنى الحب لأنه لا شىء يحملك على احتمال الأذى فى سبيل الغير إلا الحب. فما أعجب أن نجد أنفسنا فى سورة واحدة صغيرة لا تتعدى سطرين اثنين أمام كل الفضائل التى نادينا بها فى منهجنا العملى وزادت عليه فضيلة الإيمان وليس هذا وحده . . .

ولكنها تشير كذلك إلى ناحية علمية سامية يجب علينا إبرازها . . .

فلم تكن الصياغة للمفرد كأن تقول والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذى آمن وعمل صالحاً وتمسك بالحق والصبر. إذ لو كانت الصياغة هكذا لحددت صفات الإنسان المثالى ولم تحدد صفات الحياة المثالية .

فالإنسان الذى يتصف بكل الفضائل السابقة لا يكون مثالياً حقاً إلا فى مجتمع على شاكلته يتحلى بهذه الفضائل وإلا فستكون فضائله أكبر جناية عليه ، لأن الفرد الذى يود أن يعيش فاضلا فى مجتمع غير فاضل سيتهم هو نفسه بأنه غير فاضل ولا يتركه المجتمع المزور الزائف يمضى فى طريقه فيترصده بالإيذاء والتحقير والابتعاد عنه وتسفيه رأيه فلا يكون أمامه إلا أحد أمرين : إما أن يتخلى عن مثله ويندمج مع الجماعة ، وإما أن يظل متمسكاً بها أميناً عليها ، فلا يشارك مجتمعه فى فكر أو شعور ، ولا يسأم كذلك من إيذائهم وتكون نتيجة هذا كله أن يحس بالغربة الدائمة فيزلزل عقله ويصيبه الخبال . . .

فالأخلاق الجماعية أو المثل العليا التى تقدسها الجماعة هى التى تصوغ الأفراد وتشكل سلوكهم فإن كانت صالحة صلح الفرد ، وإن كانت فاسدة فسد تبعاً لها . ومن هنا نلمح أثر التربية التى تقرها الجماعة الصالحة . فالدوافع قوة عمياء لا تؤدى عملها على أفضل وجه إلا بالتربية الصالحة وما تواضع عليه المجتمع الفاضل من نظم وقيم . . ولنتصور مثلا دافع حب

الاستطلاع كيف يكون خطره إن لم يدرب الناشئ منذ حداثته على البحث المنطقى عن الحقائق العلمية والفلسفية، وعلى النظرة المستنيرة إلى حقائق الوجود عن طريق محاكاة من هم أكبر منه وأقدر، وما خلفه السابقون من تراث علمى وفنى وأدبى، وإلا فستنصرف طاقته إلى الكشف عن نقائص الناس وتتبع عوراتهم وما شاكل ذلك .

فالتربية الصالحة والبيئة الفاضلة تشكل الدافع وتسمو به إلى أعلى قدر مستطاع من الإنسانية وكذلك غريزة الجنس ينظمها المجتمع بالزواج والاقتناء ويكيفها النظام الاقتصادى وهكذا . . .

فالفرد يولد عادة بفطرة بريئة وما يلوث هذه الفطرة إلا سوء التربية أو انحلال البيئة وهنا نجد أنفسنا أمام فكرة مسئولية الجماعة التى طالما تشدق بها أنصار الماركسية وظنوا حينما توصلوا إليها أنهم وضعوا يدهم على العلة الرئيسية، التى لم يسبقهم إليها سابق مع أننا رأينا الآن أن القرآن الكريم صاغها كاملة منذ أربعة عشر قرناً .

ولكن ما أبعد الفرق بين المنهج السامى الذى رسمه القرآن للجماعة، والغاية النبيلة التى دعا إليها وحددها عن طريق القوى المعنوية، وبين الأسلوب الوضيع والغاية المسفة التى تطلع إليها الماديون الاقتصاديون، فالمشكلة الاقتصادية عقدناها نحن بأيدينا بتخلينا عن الفضائل العليا، وبعد ذلك رحنا نلتمس لها الحلول

كمن يصنعون أصناماً ثم يخرون لها ساجدين .

ولا شيء يجعلنا نستمسك بعروة الإيمان أكثر من أن نراه خاصة إنسانية . فالحيوان يشاركنا فى الصفات الإنسانية العليا كالإدراك والخلق والإحساس بالجمال وإن كانت على نسب محدودة أو ضئيلة إلا أنها موجودة فعلا فلا يمكن إنكارها . أما الشيء الذى هو إنسانى محض فهو التدين . ولذلك فإنا نرى أحدث تعريف للإنسان أنه حيوان متدين . بدل أن يقال حيوان ناطق أو ضاحك . وإن كنا نرفض هذا التعريف هنا .. لأنه ما دام التدين خاصًا به وقفاً عليه فإنا نطلق عليه كائناً متديناً تمييزاً له عن وصفه بأنه حيوان وتكريماً لإنسانيته .

* * *

نعتقد الآن أن هدفنا قد أصبح واضحاً تماماً وهو العمل على إيجاد حياة مثالية عن طريق مجتمع يطبق القيم التى قدمناها فى منهجنا العملى على أن يكون الإيمان بالله هو المحور المختار ...

وتصميمنا على أن يطبقها المجتمع كله لا بضعة أفراد منه هو إيماننا أنه كلما زاد عدد المنفذين لها قلت مشقتها فإذا طبقها المجتمع كله أضحت عملا عاديًا يسيراً لا كلفة فيه ولا معاناة .

ودليلنا على هذا موقفنا من مذهب « كانت » الأخلاقى . وكانت لم يكن فيلسوفاً عاديًا أو حتى مفكراً عبقريًا ، وإنما هو عقلية فذة يعز نظيرها فى تاريخ البشر بشهادة الجميع .

وإلقاء نظرة على فكرتنا وفكرته الأخلاقية يوضح هذا

بما لا يدع مجالا للشك بعده . فنحن نختلف في ثلاث معه نقط رئيسية .

أولا : هو يرى أن آية الفعل الخلقى أن يكون مطلقاً غير مشروط . . هذا صحيح . . ولكنه يرجعه إلى النزاع الذى يقوم بين الواجب والشهوة أو بين العقل والهوى وأنا أرى كذلك أن الفعل الخلقى مطلق ولكنه يستند إلى الجزاء الذاتى لا إلى الصراع الذاتى . . .

ثانياً : اضطر لتبرير مذهبه أن يقيمه على أسس ميتافيزيقية كخلود النفس ووجود الله لأنه رأى أن العناء الذى يكابده الأخلاقى فى هذه الحياة لا يجد ما يكافئه من الجزاء فيها . ولابد أن ينال جزاءه فى الحياة الأخرى والله العادل يتولى جزاءه هناك . . وأنا وإن كنت أتفق معه على الحياة الأخرى إلا أنى أرى أنه إذا سادت القيم الاجتماعية الفاضلة فإن الإنسان يسعده جداً أن يفعل الواجب ويجد فى قيامه به الطمأنينة كفاء ما قدم حتى ولو لم تكن هناك حياة أخرى . . .

إننا لو خلقنا مجتمعاً فاضلا فستكون النتيجة كالآتى :

العمل الخلقى =

تقدير المجتمع + مسايرة القانون + احترام الذات + الثواب الأخروى

العمل غير الخلقى = استهجان المجتمع + جزاء القانون + احتقار الذات + العذاب الأخروى. أى أن المجتمع الذى تسوده قيم

فاضلة تتعاون المثوبات كلها مع الفرد لحساب الفضيلة .

وكذلك تتعاون عليه العقوبات كلها إن اتجه ناحية الرذيلة ومن هنا ينعدم الصراع لأن الصراع ينشأ نتيجة اهتزاز القيم وغموضها فى نفس صاحبها بالنسبة لانحلال المجتمع أما إذا التف المجتمع حول مثل أعلى فلا اهتزاز ولا غموض .

ثالثاً : أنه لما بنى أخلاقيته على أساس الواجب المطلق أكد أن الأفعال غير الخلقية يؤدى إليها دائماً حافز غريب عنها بينما الأعمال الخلقية تحمل فى ذاتها مبرراتها بصرف النظر عما يترتب عليها من نتائج وآثار . . .

وأنا أرى أن الأخلاقية تبنى على الحب لا على الواجب ولذلك فيمكن أن يدخل فى العمل الخلقى حافز غريب عنه ليصحح آثاره ومع ذلك يبقى عملا أخلاقيا . على شرط أن يكون أساسه الغيرية لا الأنانية والحب للغير لا لمصلحة شخصية كما بينت ذلك فى فصل الحب عن أهمية الباعث بالنسبة للقيمة والغاية .

* * *

فكانت لم يتطلع مثلنا إلى مجتمع يقوم على الحب ويعمل على إيجاده،ولكنه نظر إلى واقع المجتمع الأنانى الذى يعيش فيه وبنى مذهبه الأخلاقى المثالى لحفنة قليلة ممن أوتوا حظا عالياً من السمو العقلى والخلقى ليمارسوه كرياضة عنيفة وبطولية عالية فيكونون أشبه ببهلوانات السيرك أمام المتفرجين .

ونحن نرفض هذه الأخلاقية التى يريدها كانت وأضرابه من العقليين ... نرفضها باسم الأخلاق نفسها لا لشىء آخر، فمعظم هؤلاء يمارسون أخلاقيتهم تفاخراً لا رغبة، وفى المجتمعات المنحلة تجد هذا الطراز من البشر يحدثك عن ترفعه ومثاليته بكثير من الغرور والإعجاب بنفسه ويخيل إليك أنه يدل بهذه الأخلاقية كما يدل الغنى بماله والعظيم بمركزه وجاهه وتحس أنه يتمنى دوام الحال هكذا حتى لا يرتفع إلى مستواه الأخلاقى أحد ليظل له تفوقه وامتيازه . إننا نطلق على هذا الصنف « أنانيين أخلاقيين » إن صح هذا التعبير . وعلى ذلك فهم لا أخلاقيون فعلا وإن كانوا فى ظاهر الأمر فى القمة العليا من الأخلاق ولا قيمة لعملهم هذا ما لم يعملوا على تعميمه وانتشاره .

وأصدق مثل لهذا موقف بضع مئات من الأسر المحافظة فى مدينة كمدينة القاهرة . . . إنك لتجلس مع الواحد منهم فتراه يقيم الدنيا ويقعدها شكوى من سوء الحال واستهتار النساء والتبرج والانحلال وما شاكل ذلك . ليقودك بعده إلى حديث عن أسرته واحتشام نسائها وبناتها وأنهن يعشن فى القاهرة كما يعيش أترابهن فى أعماق الريف. فلا خروج إلا بإذن وتحت وصاية وفى أضيق الحدود، ولا اتصال بجيران أو معارف حتى لا يصابوا بالعدوى من هذا الفساد المستشرى الذى لا أول له ولا آخر، وهم بمسلكهم هذا واهمون . . . فالذى يحدث فعلا من وراء ظهور أكثرهم عكس ذلك تماماً لأن هذا الفسا

المستشرى لن يتركهم فى عزلتهم وإن هم تركوه فسيمتد إلى داخل هذه الأسر عن طريق خادمة أو صديقة أو ما شابه ذلك من عشرات الحيل الشيطانية التى يجيدها المفسدون . كما أن نساء مثل هذه الأسر إذا سقطن ولو مرة واحدة فستكون السقطة التى لا قيامة بعدها .

ولقد رأيت بنفسى بعض أوغاد الشبان يتآمرون على مثل هذا الصنف من الفتيات والنساء ويعقدون المباريات والمراهنات للعمل على سقوطهن والفوز بهن . وقد تجد الواحد منهم له علاقة بأكثر من فتاة ولكنه لا يفاخر إلا بعلاقته بهذه بالذات التى يظن الجميع أنه شىء مستعصى أو بعيد المنال .

وأمر من ذلك وأدهى لو وقع فى يد واحد من هؤلاء أثر لها كرسالة أو صورة ممهورة بإمضائها فسيستذلها بها مدى الحياة وقد تكون السقطة هذه والفتاة غضة السن فى دور المراهقة ثم تكبر وتخطب وتتزوج ومع ذلك يظل على تتبعها وهى لا تستطيع المقاومة لشعورها أن شرف أسرتها كله معلق بنشر هذه الرسالة أو هذه الصورة فتظل أمة مسخرة له ما لم يرتد إليه ضميره أو ينقذها الله منه عن أى طريق . . . ولو خيرت أنا بين الرذيلتين — إن كان فى الرذيلة خيار — لقلت إن التى تمارسها هواية ومتاعا خير من التى تمارسها غصباً واضطرارا لأن هذه الأسر المتحررة التى تترك لفتاتها الحبل على الغارب يصادقن كما يردن لا يقدر وضيع أن يستغلهن هذا الاستغلال .

* * *

والخلاصة أن الحياة المثلى هى الحياة المتناغمة المتقاربة أخلاقيا وليست المنقسمة على ذاتها فقلة نادرة بلغت حد الاكتمال البشرى وقطيع كامل يعيش على وحشية القبيلة أو ما دونها .

وبذلك تحل مشكلة الاستبداد كما حلت مشكلة الاستغلال تطبيقاً لحديث الرسول : كما تكونوا يول عليكم. فإذا أتيح للجماعة أن تسمو إلى هذا المستوى فلن تكون هناك فرصة لمستبد أو طاغية لأنه لن يكون هناك وصوليون أو نفعيون يبررون المظالم ويشرعون أقلامهم للتفسيرات الملتوية لكل خطيئة يرتكبها مستبد أو غشوم .

ولذلك فحين قلنا فى المقدمة إن العالم يواجه أشد محنة فى تاريخه من أثر الفلسفات المادية كنا ندرك النتيجة التى سينتهى إليها لو لم يرفع رأسه عن الأرض ليتجه إلى السماء .

ولا خلاص للعالم اليوم من أزمته الراهنة إلا إذا سادت هذه القيم .

فعلى من يؤمن بهذه الرسالة واجب الإسراع فى تنفيذها مجتمعين لا فرادى ليحققوا لأنفسهم إنسانية كريمة عالية ولينقذوا العالم من الهاوية التى يوشك أن يتردى فيها . .

والله الموفق للصواب . . .

موضوعات الكتاب

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١

دار المعارف بمصر

تقدم إلى قراء العربية هذه الطائفة من الصور الاجتماعية الحية الطريفة على صفحات كتب سلسلتها الشعبية « اقرأ » :

- طرائف من الصحافة
- المعذبون فى الأرض
- رفيق الأرض
- الجدة الصغيرة
- أمير قصر الذهب
- وعى الشباب
- قصر الرشيد
- حبات المسبحة
- الجامحة
- عادات
- شيخ التكية

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع

يونيو ١٩٦١

الثمن

٣٠ قرشاً سورياً